

ألبرتو مانغويل

# عودة

رواية

ترجمة

يزن الحاج

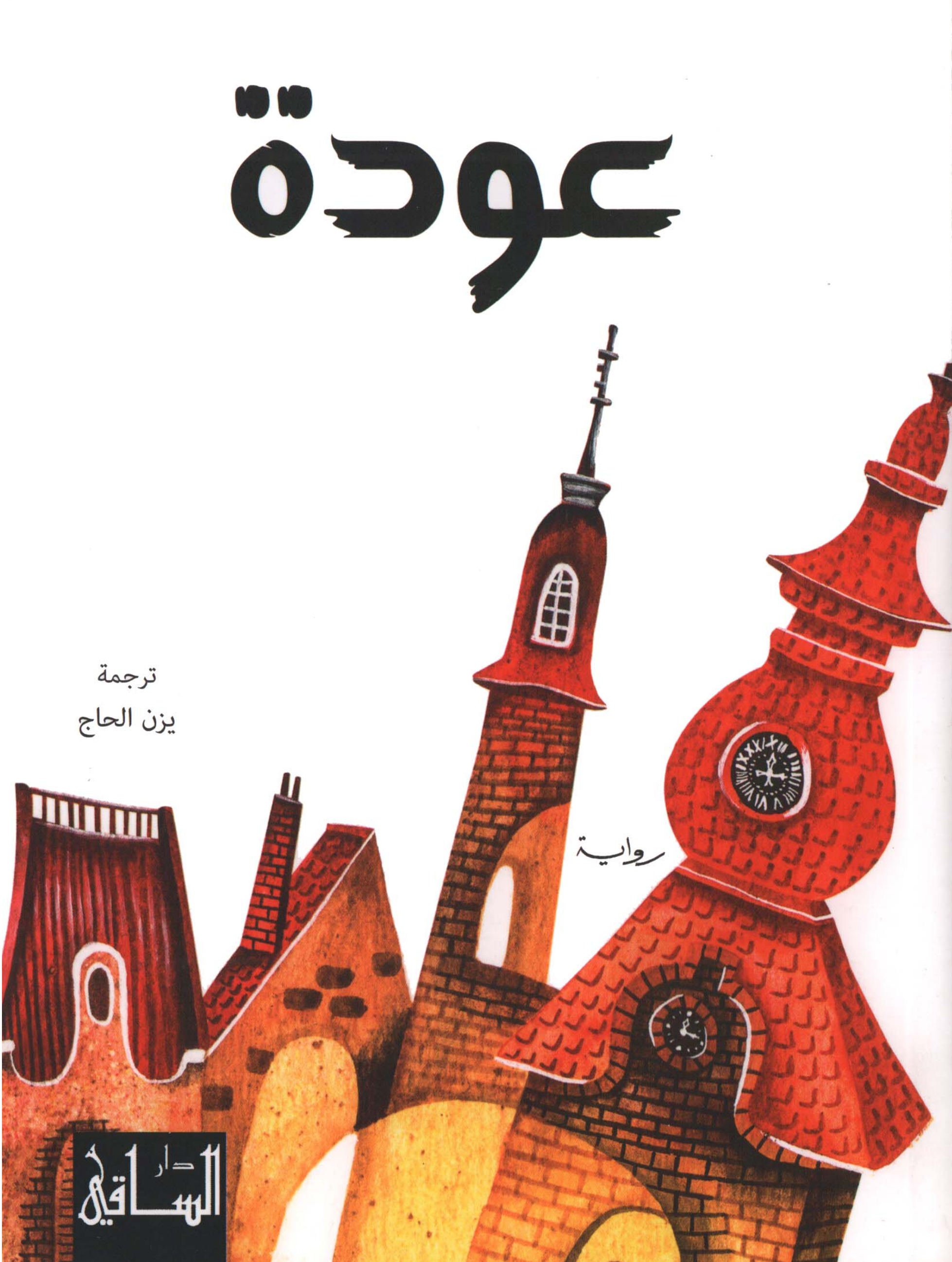
دار الساقي

ألبرتو مانغويل
عودة

الساقي

ألبرتو مانغويل

# عودة




ترجمة

يزن الحاج

# عودة



## صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- تاريخ القراءة
- مع بورخيس
- المكتبة في الليل
- يوميات القراءة

تصميم الغلاف: سومر كوكبي



ألبرتو مانغويل

# عودة

ترجمة

يزن الحاج






Alberto Manguel, *A Return*

c/o Guillermo Schavelzon & Asoc., Agencia Literaria
www.schavelzon.com

الطبعة العربية

الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-853-8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على ·
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi



إلى بوريس سبيفاكوف

في ذكراه




مكتبة
الفكر الجديد

"يا ربّة الإلهام، أنبئيني بالأسباب."

فيرجل، **الإنيادة ١: ٨**

"يا ربّة إلهامي، قولي لي السبب..."

إنريكه كاديكامو، **ميلونغياندو**






مكتبة
الفكر الجديد

ثلاثون عاماً مرّت منذ غادر نيستور إستيبان ساموبل فابريس المدينة التي سيعود إليها الآن، وقد بدا القيام بهذا الآن، لمجرّد أنّه كان قد تعهَّد بحضور زفاف ابنه الوحيد بالمعموديّة (الذي يجدر القول إنه لم يره أبداً)، عملاً من أعمال الحماقة الواضحة. أن يهجر شقّته، الصغيرة ولكن المريحة جداً، بإطلالتها التي لا تُقدّر بثمن على جزيرة تيبر، وأن يهجر محلّه، الصغير كذلك ولكن المربح، في فيا ديلورزو، وأن يهجر روتين الإسبرسّو الصباحيّ المعتاد (الذي لن يتشاركه بعد الآن مع فاليريا، للأسف) وغداءه الخفيف في المطعم عند الزاوية حيث كان ثمة طبق مخصَّص له دوماً، ونزهته الليليّة على ضفّة ترانستيفيري، بدا له (بخاصة الآن، وهو عالق في مقعده اللعين في الطائرة،) ثمناً باهظاً يدفعه مقابل بهجةٍ غير





أكيدةٍ للقاء شخصٍ من الأرجح أنّه لم يرث أيّاً من ملامح أمه؛ لا سحر مارتا ولا ذكاءها، بل وربما لم يرث لون شعرها المميَّز حتّى.

لم يكن يريد العودة. أو بالأحرى، ومنذ اليوم الأول الذي تنزّه فيه عبر شوارع روما المرصوفة بالحجارة، كان قد أقسم لنفسه بأنّ المدينة الأخرى، المدينة التي كانت مدينة طفولته وشبابه، ستنتمي إلى الماضي من الآن فصاعداً، إلى شيءٍ كان حيّاً يوماً ما ولم يعد كذلك، مكانٌ ابتلعه البحر. لم يشأ أن يصبح أحد أولئك المنفيّين الذين سيقومون، من ظهيرة إلى أخرى، على طاولة مقهى حديث، بتطوير المدينة المهجورة بحماس مخطِّطٍ مدنيّ، موسّعين الشوارع التي في الذاكرة، مرمّمين الأرصفة المتصدّعة، مُخفين كلَّ ما هو قذر أو بشع خلف واجهات ملوّنة رائعة.

منذ أن سمع أستاذاً منطقياً في الأدب الفنزويليّ يقارن





مدينته الأصليّة باغاتيتا مع مدينة البندقيّة في عصرها الذهبيّ، لأنّه، وكما حاجج البروفيسور، "يوماً ما ستشهد مستنقعاتنا، القذرة الآن بكل تأكيد، ظهورَ القصور التي ستكون أكثر ترفاً من تلك الخاصة بالدوق، وافتتاحَ القنوات المائيّة الأكثر رومانسيّةً من قنوات كاناليتو"، لم ينجذب فابريس إلى مثل هذه النوستالجيا المبتذلة على الإطلاق.

حتى بعد أن انتزع ابنه منه (على الهاتف) وعداً بحضور الزفاف، كان تحفّظه قد تعزَّز ظاهرياً بسلسلة من العوائق الصغيرة. أخبره موظف مكتب السفر، الشديد الكفاءة عادةً، بأنّه، وعلى نحوٍ غريبٍ جداً، لم يكن ثمّة مقاعد شاغرة في الدرجة الاقتصاديّة في اليوم الذي جهّز فابريس نفسه فيه للسفر. مساعِدة فابريس، والموظفة الوحيدة في المحل، ("فابريس الأفضل" كما سمّاها زبون ساخر) أُصيبت فجأةً بالتهاب الكبد. جامع تُحف ومليونير





بلغاريّ، كان فابريس يعوّل عليه كثيراً لسنوات، أرسل إليه يخبره بأنّه سيمرّ بروما لمعاينة قطع محدّدة كان فابريس يحاول إغراءه بشرائها. كان فابريس يعتبر نفسه رجلاً عند كلمته. دفعه الوعد الذي قطعه لابنه، والشعور الغامض بالمديونيّة لحبٍّ قديمٍ وبعيد، كيّ يُلحّ على موظف السفر ليحصل على تذكرة (في درجةِ رجال الأعمال، على أيّة حال) في الموعد المحدّد. كما أقنع قريبة مساعدته (وهي طالبة أركيولوجيا مثلها) كي تحلّ محلّها لأسبوعين، كما أرسل، أخيراً، رسالةً إلكترونيّةً طويلةً إلى الرجل البلغاريّ شارحاً فيه أنّه سيحصل على قطع أفضل في غضون عدة أشهر ليريه إياها، وأنّ من الأفضل له الانتظار حتى عيد الميلاد كي يأتي ليراها.

"هل تعيش في روما؟" سأله الرجل البدين الجالس بجانبه، بعد أن احتضن سنّادتَيْ الذراعين.

كان الرجل قد جهد في فتح علبة من سكاكر العسل





وقدّم بأصابعه القصيرة والغليظة قطعةً إلى جاره المرتبك الذي دسّها بتحفّظ في جيب جاكيته العلويّ، مُخفياً نفوره. ماضغاً قطعة السكاكر، ودون أن ينتظر ردّاً، شرع الرجل البدين، مسلَّحاً بكومةٍ من الإحصائيات، بالتفسير لفابريس سبب أنّ أيّة مدينة في أميركا الجنوبيّة ("خذ فيلافوريس أو مامانتونغا، مثلاً") لا يمكن لها "أن تنافس ثقافةً – سأخبرك بهذا لوجه الله – ذات تاريخ ممتد لقرون طويلة. ولا تحاول طرح مسألة الانهيار والسقوط. أعلم ما أنت بصدد قوله: أوروبا في أيامها الأخيرة ونحن، في العالم الجديد، ورثتها المحظوظون. ألم ترَ ما حصل للورثة؟ انتهى بهم الأمر إلى الاقتتال في ما بينهم بحيث لم يرث أحد منهم شيئاً في نهاية الأمر. لن أقبل حجّتكَ القائلة إنّ مسلّة فيلافوريس تتفوّق على أيّ برج بيزا قديم آخر. لا يا سيّدي. على الأقل في أوروبا لا يقومون بتشويه صروحهم الوطنيّة بشعارات





سياسيّة. هل تريد قطعة سكاكر أخرى؟".

منتظراً أمتعته بالقرب من المسافرين الآخرين بعيونهم المرهقة وأنفاسهم الثقيلة، مرتعشاً من البرد بالرغم من المعطف الخريفيّ الخفيف الذي أحضره بعد تفكيرٍ صائب، مصاباً بالدوار على نحوٍ ما بفعل اختلاف التوقيت (خمس أو ستّ ساعات، لم يعد بوسعه التذكّر الآن)، كان ثمّة إغواءٌ يدفع فابريس للعودة وركوب أول طائرة إلى فيوميتشينو.

"سينقضي الأسبوع بسرعة"، قال محاولاً مواساة نفسه. ولكنْ كان ثمّة قدْرٌ ضئيل من الاقتناع في كلماته.

كانت حقيبته آخر حقيبة في الوصول وبذلك كان طابور فحص جوازات السفر شديد الطول بحيث شعر بمزيدٍ من الإحباط. ثمّة صداعٌ خفيف، إضافةً إلى شعورٍ بالغثيان بدأ بالتسلّل إلى حنجرته، وكانت أذناه تضجّان بقعقعةٍ بعيدة، كما كان يلاقي صعوبة في تكييف عينيه مع





الضوء المتقطّع لمصابيح الفلورسنت.

"السفر جواً لا يُناسبني"، قال لنفسه.

توقّف طابور جوازات السفر، وكان الجميع صامتين وساكنين على نحوٍ مخيف. "يبدو أنّ أمامي ساعة من الانتظار على الأقل. من الأفضل أن أرشّ قليلاً من الماء البارد على وجهي"، قال في نفسه.

كانت المغاسل مخفيّةً وراء حاجز أصفر مغطّى بلوحات تحذيريّة تُبيّن عواقب تهريب الفواكه والأدوية وجلود السحالي والأطفال. كانت ثمّة امرأة بمئزر مرقّطٍ بمربعات، شعرها يلتفّ بنعومة حول أذنيها، تمسح المغاسل بنشاطٍ مستخدمةً ممسحةً قذرة. حالما دخل فابريس أوقفت عملها، رفعت رأسها، ودون أن تنظر إليه أوقفت جَلَبتها بتأفّفٍ قبل أن تستأنف مسحها، مُرجعةً شعرها كحصانٍ متململ. كان بوسع فابريس رؤية وجهٍ شاحبٍ جامدٍ في المرآة مُؤطّرٍ بجدائل رماديّة غليظة طويلة.





"إنه مغلق"، قالت المرأة بثقة دون أن تلتفت.

"سأنتظر"، ردّ فابريس.

"انتظر في الخارج" أجابت المرأة، ورفعت كتفيها كما لو أنّها ستبدو أطول على نحوٍ تهديديّ.

بعد أن أحسّ بالافتقار إلى القوّة كي يجادل، خرج فابريس ووقف قرب اللوحات التحذيريّة. استمرّ الدوار؛ بالأحرى، بدا وكأنّه يزداد. وجد أنّ من الصعب عليه تركيز نظراته. كما لاحظ، وإن بشيءٍ من الغشاوة، أنّ الطابور لا يزال طويلاً ومتوقّفاً. ومرّت دقائق.

"تأخرت الساحرة عمداً"، فكّر بغضب.

أخيراً ظهرت المرأة حاملةً فرشاتها ودلوها، وقرّر فابريس الدخول دون أن يُلقي ولو نظرةً باتّجاهها، ولكنّ المرأة أوقفته عند الباب ووضعت يدها على قبّة سترته.

"لا تفقد أعصابك يا حلو. خذ شيئاً صغيراً لحلّ مشكلتك"، وانتبه فابريس إلى أنّها تحمل نوعاً من





الدبابيس أو الشارات على شكل ورقة شجر كتلك التي تُباع في أسواق الأعمال الخيريّة. أبعدها فابريس ودخل المغاسل.

بعد أن غسل وجهه أحسّ ببعض الارتياح، ولكنّه شعر أنّه بحاجة إلى الجلوس قليلاً ليستريح، حتى لو على كرسيّ التواليت. فتح أحد أبواب المراحيض، وأنزل الغطاء بقدمه (بحيث لا يلمس شيئاً، إذ كان دوماً يخاف فكرة التقاط مرضٍ تناسليٍّ في الحمّامات العموميّة)، أسند حقيبته على ركبتيه ورأسَه على الحقيبة، وأغلق عينيه. لمعت مئاتٌ من الأضواء البرّاقة خلف جفنيه المغلقين، "كصالة رقص مليئة بأثاث ذهبيّ"، فكّر فجأةً.

حينما فتح عينيه مجدداً، أدرك أنّه أصبح قادراً على التركيز بوضوح أكبر. قرأ الرسائل والأسماء والرموز التي تزيّن جدران المرحاض. قرأ (وتذكّر، في اللحظة ذاتها، أنه قرأ منذ زمنٍ طويل) الأبيات الرمزيّة التي مطلعها:





في بقعة الجدارة النبيلة هذه
يجلس شتّى أنواع المسافرين:
كلٌّ جبانٍ يبتسم ويحتمل،
كلّ شجاعٍ يلقى القذارة.

أمسك حقيبته وخرج. اقترب منه كلب جيرمان شيبرد، من تلك الكلاب المدرَّبة على التقاط الممنوعات، مهمهماً. متظاهراً بعدم الانتباه، أسقط فابريس من جيبه العلويّ قطعة سكاكر العسل التي أعطاه إياها الرجل البدين. اختطفها الكلب بجشع، وبعد أن لعق فكّه استلقى أرضاً كممسحة عند مدخل الحمّامات ونام.

لم يتبقَّ أحدٌ في الطابور. اقترب من النافذة وأظهر جواز سفره الإيطاليّ. تفحّصه شرطيّ الهجرة من رأسه إلى قدميه قبل أن يختم الجواز ويعيده إليه. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الشرطيّ. "تفضّل يا سيّدي، إقامة سعيدة" قال، ثم أضاف مفاجئاً فابريس: "Tempus





"fugit Tempus fugit"[1] يا صديقي.

ثمة بابان للخروج، وكان كلاهما قد أُعيد طلاؤه. الباب الذي على اليسار، الذي كان أحمر في ما مضى، اكتسب عبر الزمن لون عظمٍ منخورٍ، وسقط حرف "O" من العبارة القديمة أعلاه بحيث أصبحت تُقرأ الآن "S METHING TO DECLARE" ("شـ للتصريح عنه"). تجمَّع حشدٌ صغير أمام الباب الأيمن، المطليّ بالأخضر اللمّاع، والذي كانت عبارته تقول بأحرف عاجيّة: "NOTHING TO DECLARE" ("لا شيء للتصريح عنه"). أحسّ فابريس، الذي كان يحمل زجاجةً من الكونياك للعريس والعروس، أنّ مناسبة عودته تستحقّ تمثُّلَ سلوك مواطنٍ صالح، فاختار الباب الأيسر. لم يوقفه أحد.

كان ابنه بالمعموديّة (الذي اتّصل به في اللحظة الأخيرة كي يفسّر عدم قدرته على استقباله لأنّ عودته تتزامن مع

---

١ عبارة لاتينيّة مُقتبَسة من فيرجل تعني "يطير الزمن أو يمرّ سريعاً" (المترجم).





الصباح ذاته الذي يتوجّب عليه فيه توقيع أوراق المنزل) قد نبّهه ألاّ يأخذ أيّاً من سيّارات الأجرة المتوفّرة خارج البوابات. "احذر، هنا قد يخطفونك من أجل خمسين سنتاً. توجَّه إلى موقف التاكسي الرسميّ. إنّه أكثر أماناً".

حالَ خروجه تنشّق عدّة جرعات من الهواء البارد. لم يتمكّن من رؤية أيّة عبارة "تاكسي" في أيّ مكان. ثمة حمّال أسود وقزم (اعتبره فابريس حمّالاً لأنّه كان يرتدي قبّعةً حافّتها زرقاء) واقف عند حافّة الرصيف. قرّر فابريس أن يسأله عن الاتّجاهات.

قال بصوتٍ عالٍ: لو سمحت. هل تعرف أين موقف التاكسي؟ الموقف الرسميّ أعني.

نظر إليه الرجل الأسود بشك: هل لديك ما يكفي للدفع؟

أجاب فابريس، بشعورٍ من الإهانة: طبعاً. هل كنت تعتقد أنّني أتوقّع توصيلة مجانيّة؟





ردّ الرجل: "من الأفضل التأكّد. في هذه الحالة هناك سيارة"، وأشار بإصبع نحيلة كقلم رصاص باتّجاه سيّارة فالكون صفراء واقفة عند نهاية الرصيف.

- هل أنت متأكّد بأنّها رسميّة؟ سأل فابريس بشيء من القلق الآن، فقد يكون الحمّال والسائق عضوين في عصابة لسلب السيّاح الحمقى الذين يعترفون بوجود مال معهم.

- رسميّة. وأنت محظوظ لأنّه السائق الأخير. هل أحمل حقيبتك؟

"لا شكراً، إنها خفيفة جداً. سأحملها بنفسي. تفضّل"، وأخرج بضع عملات معدنيّة من جيب معطفه.

نظر الرجل دون أن يلمس النقود. "أعطها لسائق التاكسي"، ثم أضاف: "أتمنى لك رحلة آمنة سنيور".

قال فابريس لنفسه: يا له من رجل مهذّب. لم يتوجَّب عليّ أن أكون شكّاكاً إلى هذا الحد. لا بدّ أنّه اعتقد أنّني بلا أخلاق.





كان السائق، الذي لم يُرى منه سوى مؤخّرة رأسه الناعمة واللمّاعة كبيضة نعامة، يجلس خلف المقود وهو يدخّن. حاول فابريس فتح الباب لكنّه كان عالقاً. أرشده السائق دون أن يتلفت:

- إنه عالق. تعال من الجهة الأخرى.

- والحقيبة؟ سأل فابريس وقد عاوده القلق.

- ضعها في المقعد الذي بجانبك. الصندوق عالقٌ أيضاً.

توجّه فابريس إلى الجهة الأخرى، فتح الباب واستقرّ بحقيبته قدر إمكانه، وقال محاولاً بثّ الثقة في صوته:

- فندق الكارلتون إذا سمحت. وسط المدينة.

- جميع الفنادق في وسط المدينة. هل أنت متأكد بأنه فندق الكارلتون؟

- نعم، الكارلتون، الكارلتون لا غيره، وأعرف الطريق. قال كاذباً.





انطلقا بسرعةٍ كبيرة في الأوتوستراد الذي يتذّكره فابريس بالكاد ما عدا مناطق قليلة: البرج المصنوع من ألواح خشبيّة مع إعلان عن مطعم شواء، أيكةٌ من أشجار ضخمة بأزهار ورديّة متفتّحة ("ياللغرابة! في الشتاء!" فكّر)، لوحة إعلانيّة باهتة تروِّج (مع أنّ الأمر معروف بطبيعة الحال) لحقيقة أنّ رحلات شركة طيران بان أميركان تطوف أرجاء العالم. على كلا جانبي الأوتوستراد ثمة صفوف طويلة من أكواخ مصنوعة من الصفيح والكرتون، وليست مسكونة، على ما يبدو، سوى بكلاب صفراء نحيلة وأطفال حفاة.

"كنت أظن أنّهم بنوا جداراً لإخفاء هذه العشوائيّات"، علّقَ بصوت عالٍ كي يُعلِم السائق الراكب الذي يرافقه ليس أجنبياً، من جهة، وكي ينفض نعاسه من جهة أخرى. ولكنّه لم يتلقَّ ردّاً. بدت بيضة النعامة ملتصقةً بالمقعد، دون أن تلتفت هنا أو هناك.

"لا بد وأنّه تعب من الإنصات إلى الهراء نفسه نهاراً





وليلاً. لا بدّ وأنّ نقل الناس على الطريق ذاتها يومياً أمر يدعو إلى الملل الشديد"، فكّر فابريس برقّة.

إنهما يدخلان المدينة الآن. تنبّه مذهولاً إلى أنّ الأبنية المتضاعفة خلسةً كانت مماثلةً لتلك التي كان يراها وهو يتنزّه عند ضفّة تراستيفيري، ولكنّ الموجودة هنا تبدو باهتةً كواجهات المباني في المشاهد السينمائيّة.

"ومع ذلك لا تزال هذه تبدو أنها الأصليّة بالنسبة إليّ. عندما أراها في أوروبا فإنها تبدو مثل محاكاة مُبهرجة"، قال فابريس لنفسه.

كان السائق قد دخل شارعاً ضيقاً مزيَّناً بأشجار فتيّة. أدرك فابريس أنّهما عالقان في أزمة سير خانقة. "هل الأمر دوماً على هذا النحو؟" سأل ضمن أصوات الزمامير الزاعقة، لمجرّد السؤال.

"دائماً في هذا الوقت" أجاب السائق دون أن يضيف شيئاً.





أرجع فابريس رأسه إلى الغلاف البلاستيكيّ. لم يكترث للانتظار. لم يكن يشعر بحاجة إلى العجلة. بل لم يكن يرغب بمعرفة الوقت، ولم يكلّف نفسه عبء ضبط ساعته. لم يكن سيتّصل بابنه بالمعموديّة إلا بعد فترة. سيستحمّ وينام لبرهة. الآن أو خلال عشرين دقيقة، لم يكترث لذلك. أغلق عينيه وغفا في نوم هانئ.

استيقظ فزعاً على الصوت الغاضب للسائق: هل تسمعني؟ لقد وصلنا. هذا هو الفندق.

بعد أن نفض فابري رأسه بأقصى ما يمكنه، سأل: كم تريد؟

"اقرأ العدّاد"، ردّ السائق والتفت للمرة الأولى. لو كان الرجل يبدو كبيضة من الخلف، فإنه من الأمام كان يشبه طائراً جالساً على عشٍّ قذر. لحيةٌ وسخةٌ شعثاء طويلة تنمو على ذقنٍ غير مرئيّة، وأعلاها أنفٌ مرقَّط وعينان محمرّتان كعيني طيرٍ جارح.





مدّ فابريس يده في جيوبه وأخرج نقوداً أعطاها للسائق، ثم فتح الباب وخطا على الرصيف جارّاً حقيبته خلفه.

"ما هذا؟" سمع فابريس صياح السائق، ولكنّه كان فاقداً لأيّة رغبة أو قدرة على الدخول في مجادلة بشأن البقشيش، فدخل الفندق. سمع خلفه زعيق زمامير أخرى والصرير الغاضب للتاكسي وهي تنطلق. بزفرة ارتياح أتاح فابريس لنفسه أن ترحّب به السجّادات السميكة، والكنبات المقلّمة الحريريّة، ولباس الحمّال الرسميّ ذو الشعار. كان يراقبه موظف استقبال طويل ونحيل، من وراء الكاونتر، بعينين خاويتين.

- ينبغي أن يكون هناك حجز باسمي، ن. إ. س. فابريس.

- لحظة من فضلك.

انحنى الموظّف الكئيب على دفتره ببطء، وكأنّه يخشى أنّ أيّة حركة مفاجئة قد تكسر عموده الفقريّ.





– آسف يا سيّدي، لم أتمكّن من رؤية اسمك هنا – قال الموظّف بصوت أشبه بتنهيدة، ثم دفع بطاقةً وقلماً إلى فابريس – ولكن لا داعي للقلق، الفندق ليس ممتلئاً. لو تفضّلت وملأت هذه الاستمارة... الغرفة ليست جاهزة بعد يا سيّدي، ولكن لو أحببت يمكنك ترك أمتعتك هنا، وسيكون بوسعي إعطاؤك المفتاح عند الساعة الثانية عشرة.

نظر فابريس إلى ساعة الحائط. كانت تقارب الثامنة. أربع ساعات من الانتظار.

– لو أحببت، يمكنك تناول الإفطار في غرفة الطعام. إنّه مشمول في الإقامة.

– شكراً، ولكنّني سأتمشّى لشمّ بعض الهواء المنعش. لا أودّ الجلوس مجدداً في هذا الوقت. ثلاث عشرة ساعة في الطائرة.

لم يبدُ أنّ أياً من الأسباب التي قدّمها فابريس مقنعة





لأنّ موظف الاستقبال تنهّد ورفع كتفيه واختفى خلف باب جانبيّ.

كان الحمّال قد وضع حقيبة فابريس على عربة، لذا دفع فابريس الباب وخرج إلى الشارع. ثم توقّف. على المدخل ثمة لوحة برونزية كبيرة تشعّ بأحرف كبيرة "فندق كلاريدج". محتاراً، توجّه فابريس إلى الحمّال الذي كان قد عاد إلى مكانه مجدداً.

- لو سمحت، أليس هذا فندق الكارلتون؟

حدّق الحمّال فيه طويلاً، ثمّ خاطب فابريس كما يفعل المرء مع طفلٍ أحمق: لا، هذا هو الكلاريدج. كما تقول اللوحة تماماً. لا أعرف الكارلتون.

- إنه فندق جديد. لديّ حجز هناك.

- من صاحبه؟

أحسّ فابريس بعجزه عن الشرح للحمّال (الذي لم يكن، في نهاية الأمر، أكثر من موظّف مجهول بلباس





رسميّ شبه عسكريّ) أنّ ابنه بالمعموديّة حجز الغرفة منذ عدة أسابيع، بعد أن أخبره أنّ الكارلتون أحد أفضل فنادق المدينة وأنه "مفتوح ويقدّم عروضاً خاصة لهذه المناسبة".

أن يعود إلى الفندق ويناقش المشكلة مع موظف الاستقبال الكئيب، وأن يأخذ حقيبته مجدداً، ويستقلّ تاكسي أخرى، وأن يكرّر الحوار عند مكتب آخر، كلّ هذه الواجبات بدت أكبر من طاقته.

"الأمر ليس مهماً"، قال ثم خرج إلى الرصيف مباشرةً دون أن ينتظر ردّاً. جرفه نهرٌ من الناس إلى الأمام، واستسلم فابريس لهذا النهر. شعر، على نحوٍ غريب، بالراحة والأمان وسط ذلك الحشد من الألوان الخريفيّة المندفعة بسرعةٍ جماعيّة نحو وجهةٍ خفيّة.

"أغزر من أوراق الأشجار المتساقطة في الخريف. لا أتذكّر أنّ الشوارع كانت بهذا الازدحام"، قال لنفسه.





كما لو كان يركب حافلةً أو قطاراً، أدار فابريس رأسه ليختلس نظراتٍ إلى رفاق سفره. نساء ذوات مظهر أموميّ، بطاركة بزيّهم الرسميّ وشعورهم المصقولة، لا شكّ أنّهم يشغلون مناصب كهنوتيّة مهمّة، شباب مندفعون ومستعدّون لخوض معارك في العالم، أولاد مراهقون مذعورون وشابّات خفيفات الخطى، مطوّقون من الجانبين بنظرات طيور مهاجرة. إلى يمينه كان يمشي رجل بشاربٍ وقبّعة من اللبّاد ومعطف رماديّ، عابقٍ بالعطر. "وليامز أفتر شيف!"، تذكّر فابريس فجأة. "كم سنة مرّت منذ شممت هذا العطر آخر مرة؟" إلى يساره امرأة عابسةٌ مسرعة الخطى بمعطفها الصوفيّ تشقّ طريقها بحقيبتها، وحين أحسّت أنّ فابريس يراقبها صوّبت إليه نظرة ازدراء ثم التفتت إلى الأمام مجدداً بحيث فضّلت تجاهله.

على جانبي الحشد كان بوسع فابريس تمييز مظلاّت





المتاجر والمكاتب، فبدأ يسلّي نفسه، وهو يتابع طريقه، بقراءة الأسماء على اللوحات واللافتات. شاعراً بالسعادة لأنّه تذكّر معظمها ("مثل وجوه في اجتماع لمّ شمل العائلة"، قال)، كرّرها بصوتٍ شبه عالٍ لمجرد لذّة استعادة أمرٍ كان يظنّ أنّه أضاعه إلى الأبد. "أحذية غريمولدي". "ألبان لا فاسكونيادا". "مقهى نادي الفرسان". "الصيدليّة الأنغلوفرنسيّة". "شوكولا كورسيغا". "غاليري فان ريال".

"مكتبة أرسطو" قرأ فجأةً، واندفع إلى يمين الرصيف على نحو مائل، كسبّاح يحاول تفادي التيّار. كانت واجهة المكتبة تضمّ مزيجاً متنوّعاً من الكتب الكبيرة والصغيرة. فكّر فابريس: "ها أنا ذا عائدٌ للتوّ لأتورّط مباشرةً في عاداتي القديمة. لا أعتقد أنّني مررت بهذا الطريق يوماً دون أن أتوقّف عند الكتب. ماذا كان اسم الرجل العجوز الذي يعمل هنا، السيئ المزاج دوماً،





والذي دائماً ما يفرض كتّابه المفضّلين على الزبائن؟"
ترك نظراته تطوف عبر الأغلفة. مبتهجاً، استطاع تمييز عددٍ من العناوين وفكّر أنّه سيأخذ بعضاً منها معه، بداعي النوستالجيا من جهة، عدا عن اللذة المُرتقَبة لإعادة قراءة كتب من المستحيل إيجادها في روما.

فجأةً، وعبر انعكاس الزجاج، رأى وجه امرأة استرعى انتباهها منظر الكتب للحظة، كما حدث معه. التفت ليتمعّن أكثر ولكنّها كانت قد تابعت طريقها وكادت تلحق نهر العابرين. صاح:

– ليليانا! ليليانا! هل هذه أنت؟

توقّفت المرأة والتفتت إلى الخلف.

– ليليانا! ألم تعرفيني؟ أنا نستور. نستور فابريس. هل كبرتُ إلى هذه الدرجة؟

اقتربت المرأة منه مبتسمةً وقبّلته على وجنته: نعم، لم أعرفك. ولم أعرف أنّك هنا حتى.





- وصلتُ هذا الصباح. أنا في حالة سيئة، إذ لم يسمح لي موظف الفندق بدخول غرفتي، ولم تُتح لي فرصة حلاقة ذقني. لقد مرّ وقتٌ طويل! تعالي نجلس في مكان ما.

اصطحبها إلى مقهى ضيّق مُزيَّن بطوب أبيض، وجلسا على واحدة من أبعد الطاولات في الخلف.

- أتذكّر الآن. كنت أعرف هذا المقهى. اعتدتُ القدوم إلى هنا أحياناً مع تونيو، وذلك الرجل الآخر، ما كان اسمه؟

- بابلو.

- بابلو. ذاكرة ممتازة. تبدين رائعة، وكأنّك لم تكبري ولو عاماً واحداً.

كانت ليليانا تراقبه بالابتسامة ذاتها التي قابلت بها ترحيبه. بصفاءٍ مذهل، تذكّر المرة الأخيرة التي رآها فيها، خارج الجامعة، في أحد صباحات كانون الثاني





(يناير) الدافئة، ليليانا محمّلة بالأوراق، بفستان أزرق خفيف، والابتسامة ذاتها، وبشرةٍ زغباء. منذ سنوات أخبره أحدهم أنّها اعتُقلت في مكانٍ مجهول، مثل كثيرين آخرين، ولم يرَها أحد مجدداً. لإخفاء سعادته ركّز على يدي ليليانا المستندتين برقّة على السطح الرخاميّ، تُخفي إحداهما الأخرى.

- تبدين رائعة! قال مجدداً، ناظراً إلى يديه المشقّقتين المغطّاتين ببقع تقدّم السنّ.

اقترب نادلٌ ذابل وأحدب، بمعطفٍ أبيضٍ رثّ، من الطاولة ودوّن طلباتهما.

أخفض فابريس صوته:

- إنه النادل نفسه، أقسم على هذا. كان عمره ألف سنة آنذاك. كم تتوقّعين عمره الآن؟ كنّا نسميه الأخرس لأنه لم يكن يتوقّف عن الكلام.

- تبدو بحالٍ جيدة، هل أنت سعيد؟ قالت ليليانا.





بهدف تجنّب الأسئلة الغريبة بدأ فابريس يحدّثها عن حياته، ما يعمل الآن وما فعله منذ أن غادر، وما كانت عليه حياته حيث عاش. "أنا أحكي لها سيرتي الذاتيّة"، فكّر أثناء حديثه. استعاد بعض الأسماء والتواريخ. صحّح لنفسه مرةً أو اثنتين ثم تابع الكلام. كان ثمة انطباع داخله بأنّه موجود في قاعة فارغة حيث ثمة صدى يكرّر المقطع الأخير من كل كلمة يقولها. كان يتحدّث عن نفسه، ولكن انتباهه كان مركّزاً على ليليانا.

كانت ليليانا تنصت دون أن تتحرك. فجأةً رفعت يدها اليمنى للحظة كي تُزيح خصلة شعر سقطت على عينيها، وانتبه فابريس برعب إلى أنّ ثمة إصبعين ناقصتين من يدها اليسرى. حاول متابعة الحديث ولكنّه فقد صوته. تلفّت حوله باحثاً عن النادل، وقال ببحّة:

- هل سيحضرون القهوة؟

عند الجدار البعيد، بالقرب من الكاونتر الفارغة، وقف





النادل وهو يحدّق فيه. أشار إليه فابريس بحركة مَنْ يتلقّط فنجاناً ويشرب. تابع النادل التحديق.

"سأذهب لأسأله عن الطلب"، قال شارحاً وقد شعر بالارتياح لأنّه وجد عذراً لفعل أيّ شيء. "أتوق لشرب شيءٍ ساخن".

نهض ومشى باتجاه الكاونتر ولكن حين وصل تحرّك النادل مبتعداً واختفى في المطبخ.

"لحظة!" ناداه فابريس، ولكنّ الباب كان قد أُغلق. للحظة طويلة أحس فابريس وكأنّه يمشي على حبل ووقف في المنتصف، عند طرفه الأول تجلس ليليانا بلا حراك مع ابتسامتها، وعند الطرف الآخر باب المطبخ الذي فرّ منه النادل.

"سألحق به. لا يمكن أن أترك ليليانا بدون قهوتها"، قال لنفسه وهو يدفع الباب بكلتي يديه.

لم يكن ثمة أحد في المطبخ. قِدران أو ثلاثة تغلي





على الموقد فيما كوَّمَ أحدهم عشرات اللفافات الصغيرة البرّاقة.

"لا بد أنّه غادر من الباب الخلفيّ. ربما هم على وشك الإغلاق، ولكن كان ينبغي عليه تنبيهنا. كنّا حينها سنشرب قهوتنا في مكان آخر"، فكّر فابريس.

قاده الباب الخلفيّ إلى ممرٍّ من الطوب الرماديّ. التفت فابريس إلى اليسار فوجد نفسه مباشرةً على الرصيف.

"من الأفضل أن أعود وأخبر ليليانا بأنّ علينا تبديل المقهى. أودّ التحدّث إليها. أريد أن تروي لي ما حدث، تلك المسكينة. أجدني الآن شديد التعلّق بها."

وشرع بالمشي بعكس تدفّق الناس. كان يعلم أنّ مدخل المقهى لا بدّ أن يكون على بعد خطوات فحسب، إذ لا بدّ أنّه دار حول نصف المبنى حين عبر الطريق من المطبخ إلى الممر. تابع فابريس طريقه. بعد ثلاثة مبانٍ تقريباً انعطف ونظر بحرص إلى المظلاّت على اليسار،





ولكنّه لم يجد أيّة إشارة إلى وجود الطوب الأبيض الذي يؤطّر المدخل.

"لا يمكن أن يكون بعيداً إلى هذا الحد. لا بدّ أنّني أخطأت المنعطف. ربما كان في المدخل التالي."

انعطف إلى اليمين عند الزاوية، واقتفى خطواته عبر الشارع الموازي، باحثاً عن لافتةٍ مميّزة. بدا كلّ شيءٍ متشابهاً على نحوٍ غريب بالنسبة إليه - إطلالات المباني، واجهات المتاجر، شرفات الزوايا - ولكن ليس ثمة شيء يدفعه للتأكد بأنّ هذا هو الشارع الذي صادف فيه ليليانا.

"سأسأل عن الطريق إلى المكتبة. لو تمكّنتُ من الوصول إلى هناك فستكون المقهى بجانبها."

من بين الناس المحتشدين اختار رجلاً بشاربٍ هتلريّ وأنفٍ منتفخٍ ضخم.

"اعذرني يا سيّدي، أنا أبحث عن مكتبة 'أرسطو'. هل





تعرف مكانها؟"

توقّف الرجل ونظر إلى فابريس بنفور.

"أغلقت ‹أرسطو› منذ سنوات. لا بدّ أنّك تقصد ‹أرخميدس›. إنها عند المدخل المشجّر ذاك. تابع المشي وانعطف يميناً عند الزاوية. لن تضيعها"، وتابع طريقه.

"لا بد أنّ ليليانا تتساءل عمّا حدث لي. آمل ألاّ تظنّ أنّني رأيت يدها وخفت. يجب عليّ العودة"، فكّر فابريس.

كان المدخل المشجَّر مؤطَّراً بأشجار جاكاراندا ضخمة تناثرت أزهارها الزرقاء في برك كبيرة على الرصيف. في نهاية الطريق انتصب صرح المدينة الشهير، قبيحاً كما يتذكّره.

"ثمة أشياء لا يمكن حتى للحنين أن يحسّنها"، فكّر.

فجأةً، وحينما كان على وشك الاستدارة عائداً، رأى لافتة عموديّة على شكل تمثال نصفيّ إغريقيّ واسم





"أرخميدس" مكتوباً بأحرف بيضاء. كانت الواجهة مطابقةً لتلك المكتبة القديمة، مع الكتب نفسها وبالترتيب ذاته، ما عدا أنّها كانت تضم أيضاً حوالى عشرة كتب أو أكثر قليلاً من الكلاسيكيات التي تصدرها مطبعة الجامعة، ومجموعة كاملة من مجلة **إل توني** تعلن عن سلسلة **كوميك** لسولانو لوبيز وهكتور ج. أويسترهيلد.

"لا بدّ أنّها مكتبة مختصّة بالكتب القديمة، ولم أدرك هذا"، فكّر فابريس، ثم غرق في شيءٍ من الحزن، "كانت لديّ جميعها. يا إلهي! كما أشعر بالأسف لأنّني لم آخذها معي!"

دخل. بسبب كونه قادماً من مكان غارق في ضوء الشمس الحاد فقد بدا المكان شديد الظلمة بحيث كان من المستحيل عليه أن يميّز عناوين الكتب المرتّبة على الجدران. عدة طاولات متداخلة كانت تمنع الزبائن من الوصول إلى الكاونتر في الخلف. شيئاً فشيئاً بدأت عينا





فابريس تعتادان الظلمة. كان صاحب المكتبة جالساً على نحو خطر على كرسيٍّ عالٍ، يقرأ.

- بريلوفسكي! هل هذا أنت؟ لا أستطيع التصديق! سنوات كثيرة. لن تتذكّرني، ولكنّني اعتدتُ المجيء غالباً إلى مكتبتك حين كنتُ صبياً.

- ولِمَ توقّفت عن المجيء؟ صدح صوت بريلوفسكي، كما يتذكّره فابريس، بتلك النبرة الهازئة التي كانت ترعبه كثيراً.

- رحلت. إلى أوروبا. إنني أعمل هناك.

ردّ صاحب المكتبة:

- هناك حيث يرحل الجميع. يظنّون أنّهم سيجدون جنّات الفردوس فيما ينتهي بهم الأمر بالعيش في غرفة نوم الخادمة. أراهم هنا لاحقاً، يجرّون أنفسهم، نادبين ممالكهم الضائعة.

- جرت الأمور على نحوٍ جيّدٍ معي هناك. ليس كما





كانت عليه الحال هنا بالطبع، أضاف بنبرة اعتذاريّة.

- كلّ تغيير الأمكنة هذا ليس سوى عُذرٍ لعدم العمل. حسناً، هل أتيت لتشتري كتاباً أم لإضاعة وقتي؟

- أتيت أسألك عن مكان مكتبة "أرسطو". تركتُ صديقةً في المقهى المجاور لها وعجزت عن إيجاد المكان مجدداً.

ولإخفاء حرجه أضاف:

- وصلتُ بالطائرة هذا الصباح، ولم يعطوني مفتاح غرفة الفندق بعد.

- أنت مخطئ. أغلقتْ "أرسطو" منذ زمنٍ بعيد. كان هذا سبب افتتاحي لهذه المكتبة. بكل الأحوال، لم تكن المكتبة هنا. كانت في شارع المشاة. ثلاثة مبانٍ باتجاه النهر. ألا تتذكّر؟

فكّر فابريس بأنّه يتذكّر فعلاً، ولكنّه لم يعد واثقاً بأيّ شيء. ثم سحب كتاباً من طاولة قريبة، دون أن ينظر إليه.





- سآخذ هذا. وبهذا لن أنسى مكتبتك حين أكون في روما. كم ثمنه؟

- إنه هديّة. لعلّه ينفعك.

في الشارع، نظر فابريس إلى الغلاف: **الماضي** لـ نوبرتو غروسمان. "ياللغرابة، بروفيسور غروسمان! أتذكّر جيداً محاضراته في التاريخ! كم كنتُ أودّ إخباره بأنّني اقتفيت خطواته. بل إنّني صحّحت معلومةً للرجل الرومانيّ مرةً، بشأن عملةٍ إغريقيّة، بسببِ أمرٍ كان غروسمان قد علّمنا إياه."

فجأةً استعاد فابريس قاعة الصف ذات اللون الرمليّ؛ مصاريع النوافذ نصف المغلقة بحيث تسمح بدخول الهواء الدافئ خلال الامتحانات الصيفيّة؛ المنصّة التي كان يتحدث البروفيسور غروسمان منها عن اليونانيين والطرواديين والفينيقيّين والسّلت والونداليّين والرومان والمساكين القرطاجيّين. استعاد الأسس الأسطوريّة،





والهجرات عبر البرّ والبحر، والبدايات السحريّة التي كان يعمد فيها غروسمان ببراعة إلى حَبْك التواريخ الأركيولوجيّة وسنوات المعارك الدمويّة، وأسماء الآلهة والجنود التي اختلطت الآن في ذهنه مع أسماء الأصدقاء القدامى. "هنا والآن"، قال فابريس لنفسه، ثم كرر: "هنا والآن".

"أو بالأحرى، هناك وآنذاك"، صحّح لنفسه.

متأثّراً بالذكرى، وصل إلى الزاوية بطاقةٍ متجدّدة، وانعطف يساراً. في الشارع كانت الحشود ذاتها لا تزال تندفع إلى الأمام. وقف فابريس على الرصيف بتردّد، كمن يهمّ بركوب الدرج الكهربائيّ. فجأةً انتبه إلى وجود ثغرةٍ بين تلميذين بلباس المدرسة ورجل أصهب ممتلئ الجسم. أسرع فابريس للمرور منها.

"يجب أن أكون منتبهاً. لا بدّ أن تكون المقهى في مكانٍ ما هنا. المسكينة ليليانا. ستتساءل عمّا حصل لي."





كانت ثمة امرأة على يمينه تحاول التقدّم، ولكنّها وجدت نفسها عاجزةً عن فعل ذلك إذ لم يبادر الرجل الممتلئ أو رجل عجوز آخر بقبّعة رماديّة ذي مظهر مميّز بالابتعاد ولو قليلاً. ابتسم فابريس داعياً إياها للمشي قبله، ولكنّ المرأة رفعت حاجبيها كما لو أنّها أُهينت وعادت إلى مكانها دون أن تنظر إليه مجدداً. استدار الصبيّان بحيث يحدّقان فيه على نحو أفضل وانفجرا بالضحك.

"معتوهان"، فكّر فابريس.

فجأةً شاهد المقهى. باعتذاراتٍ وعدّة انعطافات استطاع، بعد كثيرٍ من الجهد، أن يصل إلى الرصيف. لم يكن ثمة أحد هناك ما عدا النادل.

– أين السيّدة التي كانت هنا برفقتي؟ سأل فابريس.

رفع النادل كتفيه.

– طلبنا فنجانَيْ قهوة. وقمتَ، دون أن أعلم السبب، بالمغادرة عبر الباب الخلفيّ دون أن تقدّم لنا ما طلبناه.





هذه المرة لم يكلّف النادل نفسه عناء رفع كتفيه. رفع حاجز الكاونتر وانتقل وراءه. شغّل ماكينة القهوة وقال لفابريس:

- لو أحببت سأعدّ فنجاناً لك الآن.

- لا، لا. لا أريد أن تقدّم لي شيئاً، - صفق فابريس الكتاب على الكاونتر - أريد منك أن تخبرني ما إذا قالت لك السيّدة التي كانت هنا أيّ شيء قبل أن تغادر.

- ليس ثمة أحدٌ هنا. لا أعلم ما الذي تتكلّم عنه. ردّ النادل، وأطفأ الماكينة.

- فابريس؟ صدح صوت خلفه.

استدار فابريس. كان ثمة شابٌّ حسير البصر يراقبه عبر نظارة سميكة.

- تونيو! تونيو، إنه أنت!

- ومن قد يكون غيري أيها المغفّل؟ لن تتغيّر أبداً. ما الذي كنت تستجديه من تشافيز؟ تشافيز، لا تسمح لهذا





الرجل بالتسلّط عليك. إن لم تكن متنبّهاً فسيُفرغ جيوبك بلا شك.

- تونيو! يا للروعة! وصلت هنا منذ عدة ساعات فحسب، وقابلت ليليانا بدايةً، والآن أنت. يا لهذا الحظ!

- توقّف عن إزعاج تشافيز. تعال ورافقني إلى الدار.

تذكّر فابريس أنّ تونيو تمكّن، قبل رحيله هو إلى روما، من إيجاد عمل في دار نشر أدبيّة متواضعة.

- ألا تزال تعمل هناك؟ أعتقد أنّني سمعت، منذ وقتٍ طويل، أنّ قنبلةً طوّحت بنصف المبنى...

- ألا تزال مهتمّاً بالكتب؟ ما الذي تقرأه هناك؟ نثر العجائز الخاص بغروسمان؟ قل لي، هل يعرف الإيطاليّون كيفيّة القراءة؟

خرجا إلى الشارع. لاحظ فابريس، عبر باب المقهى، أنّ النادل كان يراقبه بازدراءٍ شنيع، ولكي يطرد ما بدا له إهانةً لا مبرّر لها تجاهله فابريس ونظر إلى صديقه.





- هل أنت مستعجل، أم يمكننا أن نشرب شيئاً؟ لم أتناول إفطاري بعد. ما يقدّمونه لك في الطائرة ليس طعاماً.

دون أن ينتظر ردّاً تأبّط تونيو ذراعه، وانجرف فابريس مع الحشود للمرة الرابعة.

قال فابريس:

- ازدحام كما كانت عليه الحال دائماً. لن يتغيّر هذا.

صحّح له تونيو:

- أناس أكثر مما كانت عليه الحال دائماً. يزداد الأمر سوءاً كل ساعة. تحلَّ بالشجاعة.

فقال فابريس، محاولاً تجنّب الارتطام بحقيبتين قماشيتين ضخمتين يحملهما شاب أمامه:

- أخبرني عن الآخرين. أخبرتك أنّني التقيت ليليانا، ولكن لم يُتح لنا الوقت للتحدث عن أيّ شيء. هل تعلم ما الذي حدث لها؟ انتبهت إلى أنّها قد تعرّضت لحادث





بلا شك، ولكنّني لم أرغب في سؤالها.

كانا يقطعان شارعاً ضيقاً آخر الآن، حيث كانت السيارات المتوقّفة على الجانبين تحاول كسر السير عبر الانحراف إلى الأمام وإطلاق الزمامير ونفث سحب سوداء من أحادي أكسيد الكربون. "مثل قطيع ماشية يحاول عبور النهر"، فكّر فابريس، وتذكّر صيفاً من المطر الغزير في منزلٍ ريفيّ نسي اسم صاحبه، كانت مارتا قد دعته إليه، هو وحده، حيث شاهدا عبر نافذة غرفة الجلوس كيف أنّ المياه، التي لم تكن أكثر من جدول راكد قبل عدة أيام، كسّرت الأشجار واقتلعت الأسيجة وحطّمت الحديد وقتلت الماشية، وكيف كانت الجثث المنتفخة للأبقار وجذور أشجار الأكاليبتوس العارية الضخمة، بعد عدة أيام، مرميّةً لتتعفّن في الشمس بانتظار رعاة الماشية كي ينقلوها.

حينما كانا على وشك العبور تمكّن فابريس من تمييز





الرأس الصلعاء الضخمة واللحية المنفّرة لسائق التاكسي الذي أقلّه من المطار، بين جموع السائقين الغاضبين الذين كانوا يحاولون التخلّص من الازدحام. في اللحظة ذاتها تمكّن العجوز من تمييز فابريس، وبعد صيحةٍ عالية فتح باب سيارته وبدأ يشقّ طريقه باتجاه راكبه المتملّص.

"اتبعني يا تونيو"، صرخ فابريس ممسكاً هو ذراع صديقه هذه المرة. دفعاً، وارتطاماً، وانعطافاً بين الحشود، ضاربين جسدَيهما بكلّ من يقف أمامهما، تمكّنا من الوصول إلى الرصيف المقابل. التفت فابريس فرأى أنّ السائق (أعطته لحيته مظهراً وحشياً بالفعل) يحاول، عبثاً، تجاوز امرأة ضخمة بمعطفٍ جلديٍّ كانت تتأرجح إلى الأمام والخلف مثل بابٍ دوّارٍ عملاق، دون أن تسمح له بالعبور.

قابضاً على ذراع تونيو، ودون أن يعرف أين هما تماماً، صعد فابريس عدّة درجات إلى مدخل ما بدا وكأنّه مول





تجاريّ سيئ الإضاءة، وأسرع مندفعاً في ممرٍّ مطوَّقٍ بمتاجر صغيرة مغلقة. تقدّما على غير هدى في الظلمة الموحشة بين الظلال. وبعد برهة انتبها إلى أنّ الممر مفتوحٌ على قاعة كبيرة دائريّة كانت كُوَّتُها مضاءةً بنور السماء الشحيح، ويطير حولها ملائكةٌ مبتسمون وأحصنة مجنّحة مرسومةٌ بألوان الباستِلْ، تصعب رؤيتها في العتمة.

قال بعد أن التقط أنفاسه:

– آسف، ولكّني لم أُرد التورّط في شجار مع رجل عجوز غاضب.

ثم أضاف لإظهار أنّه لا يأخذ المسألة بجديّة:

– يبدو أنّني لم أعطِه بقشيشاً كافياً عندما دفعت له أجره ما تسبّب بغضبه. ربّما يكون إيطالياً.

ضحك تونيو دافعاً نظارته التي كادت تسقط عن أنفه خلال الركض:

– لطالما كنتَ ابن حرام متهوراً. في كل الأحوال، أرى





أنّ ردود أفعالك لا تزال فعّالةً كما كانت. عندما حاكمَنا الخنازير، كنتَ الوحيد الذي تمكّن من الفرار، أتتذكّر؟

تذكَّر فابريس. كان الاحتجاج أمام أبواب الجامعة (لم يعد يتذكّر سبب احتجاجهم بالضبط)، حيث يرفعون لافتات ويصدحون بالشعارات، وعندما حاولت السلطات قول بضع كلمات أخرسَتْها الصيحات والصفير. وفجأةً بدأ هجوم رجال الشرطة الراكبين على الأحصنة بالسيوف والحوافر والغازات وصفارات الإنذار. كان فابريس قد حاول جذب مارتا من ذراعها ولكنّ مجموعةً من ستّة أو سبعة طلاّب تدافعوا بينهما فأضاعها بفعل الدخان والدموع. بدأ الركض مع آخرين عشوائياً، وتوقّف بعد مبنيين أو ثلاثة عند مقهى ليغسل عينيه. حينئذٍ فحسب أدرك أنّه وحيد، وكان بوسعه سماع العويل والرصاص من بعيد. بعد يومين، وبضغطٍ من والديه، فرّ إلى روما. ولم يرَ مارتا مرةً أخرى. بعد





زمن أخبره أحدهم بأنّها انتقلت للعيش مع أحد أفراد جماعتهم، وأنها أنجبت ولداً، ثم أُخذت إلى الجنوب الذي لا يرجع منه أحد.

"راحة البال يا صديقي، هذا ما حصلتَ عليه. راحة البال."

في أحد أقسام القاعة المستديرة كان ثمة مقهى تختفي نوافذه خلف ستائر مخمليّة.

"لندخل ونجلس"، قال فابريس بصرامة، ثم أضاف كيلا يظنّ تونيو أنّه يبتكر ذريعةً لتركه، "ثم سأعود إلى الفندق. لا بدّ أنّ الغرفة جهزت الآن، وأنا أشعر بالنعاس الشديد. تعب السفر بالطائرة، كما تعلم".

"كما تشاء يا معلم"، أجاب تونيو.

في الداخل كانت الظلمة شديدةً بحيث يعجز المرء عن الرؤية. لهبٌ شحيحٌ صغيرٌ يحاول إنارة الطاولات الصغيرة ولكن دون أن ينجح إلا في رسم دائرة مرتعشة





على القماش ذكّرتْ فابريس بالطحالب المضيئة التي رآها مرةً تطوف على سطح البحر الأدرياتيكيّ. حشرا جسديهما عبر المقاعد المغطّاة بمخمل الستائر السميك ذاته، وانتظرا. لا بدّ أنّ الحرارة كانت مضبوطة على أقصى درجاتها لأنّ الجو يكاد يكون خانقاً. متعرّقاً بغزارة، خلع فابريس معطفه وجاكيته ووضعهما بجانبه. وضع الكتاب على الطاولة. ليس ثمة أدنى حركةٍ هناك في العتمة.

قال فابريس بنزق:

- ما قصّة النادلين اليوم؟

كان شديد العطش، ولم يهدأ صداعه. ضغط على صدغيه بإبهاميه.

سأله تونيو:

- هل تتذكّر هذا المكان؟ غامبيرا، ماسترسون، إتورالدي؟ لوبيز، كاناغريلي، بولوسا؟

بوضوح فوتوغرافيّ رآهم فابريس جميعاً، وجهاً إثر





آخر، وهم مراهقون. ردّ بحماس:

- والآخرون، بوزاتي، فاينشتاين. وذلك القصير ذو الأنف الكبير، ماذا كان اسمه، كنّا نسمّيه الخلد... ليليانا اعتادت المجيء أيضاً، صحيح؟ هنا التقت ذلك الصبيّ، أول من انضمّ إلى الحزب، ما اسمه؟ أعتقد أنّ أمراً ما حصل له، بعد فترة ليست بالطويلة. هل أنا على حق؟ يسمع المرء أموراً غريبة كثيرة.

- فعلاً، قال تونيو.

- لا أعلم لَمَ لَمْ أتذكّر مباشرةً. ولكن بالطبع! اعتدنا الدخول من الجانب الآخر، هناك. ومع ذلك لا أتذكر أنّ المكان كان شديد الظلمة.

- مارتا اعتادت القدوم أيضاً.

أراد فابريس الآن معرفة كلّ شيء. لو كان تونيو يعرف أيّة أخبار جديدة بشأنهم جميعاً، ينبغي عليه إخباره بذلك، بالتفصيل، ولن يهمّ ما إذا كان الموضوع مؤلماً؛ كان قد





سمع إشاعات مزعجة كثيرة جداً خلال هذه السنوات التي يريد الآن معرفة كلّ ما حدث فيها بالضبط، دفعةً واحدةً على نحو حاسم، بدلاً من متابعة تخيُّل كل أنواع الأشياء الشنيعة والقصص المرعبة. من بقي حياً؟ من مات؟ من رحل، كما فعل هو، إلى المنفى، أو لمجرّد الهجرة بعيداً، إذ إنّ المنفى يعني ضمنياً أنّ هناك عودة، وكان فابريس يعلم أنّ العودة لم تكن ممكنة، إذ تستلزم العودة التكرار، والزمن لا يسمح بالتكرار؛ إلى الخارج إذاً، لخلق حيوات جديدة لأنفسهم، ربما دون أدنى رغبة بتذكّر العالم الذي خلّفوه وراءهم، إذ اختُزلت كلّ هذه الأمكنة الآن ببطاقات بريديّة وصور ودفاتر هاتف مهترئة تغيّرتْ معظم أرقامها، وإلى لائحةٍ مضطربةٍ من أسماء مَنْ كانوا أصدقاء منذ زمن بعيد، في ذلك الماضيّ الوهميّ حين كانوا فتياناً جميعاً، وحين كانوا شديدي الاختلاف عن الحالة التي أصبحوا عليها حين كبروا، وحين كانوا ينطقون بأشياء تبدو الآن،





بعد قرون، سخيفةً حزينة تُوجع القلب.

أجاب تونيو وهو يرفع يده:

- لحظة يا صبيّ، طوّل بالك! "أخبرني عن مغامراتك أولاً. تذكّر أنّني لا أعلم شيئاً عمّا فعلتَه في إيطاليا الآثمة.

للمرة الثانية هذا الصباح سمع فابريس نفسه وهو يحلّ خيوط قصة حياته: وصوله إلى أوروبا، بداياته الصعبة، التدرّب على يدَيْ التاجر الرومانيّ العجوز الذي علّمَ الوافد الجديد من أميركا الجنوبيّة طقوس المهنة. لم يتطرّق إلى فاليريا واللقاء الغريب في قطار الضواحي، وحياتهما معاً في تراستيفيري، الانفصال الذي بدا حديثاً جداً بحيث كان ينسى أحياناً فينزل في المحطّة الخاطئة. ثم أحسّ فابريس بعجزه عن المتابعة، وبُحّ صوته بفعل الإرهاق. لم يأتِ أحدٌ لتسجيل طلباتهما بعد.

عندئذٍ فحسب سمع فابريس شيئاً يشبه النخر أو الشخير من خلفه. حين التفت رأى على الطاولة المجاورة، التي





كانت تبدو شاغرةً من قبل، كومةً ممّا بدت وكأنّها ثياب قديمة. همس فابريس بشيءٍ من الخوف:

- تونيو. ثمة شيءٌ هنا، وأعتقد أنّه نائم.

- ألا تتذكّر المرات التي كنّا نأخذ فيها قيلولةً هنا بعد ليلةٍ من السهر أو التحضير للامتحان؟ إنّه المخمل كما تعلم. أضفه إلى الحرارة وسيعطي تأثيراً كالمخدّر.

تسارع الشخير وعلا، وفجأةً توقّف تماماً. برز وجهٌ متغضّنٌ ومبتسمٌ من بين الثياب.

- لِمَ لا تخرسان؟ لا يمكن للمرء أن ينعم بنومٍ هادئ هذه الأيام.

قال تونيو ناظراً إلى كومة الثياب:

- لن يوقظك حتّى نفير يوم القيامة يا بابلو. كيف حالك يا كلب؟

- مرهق يا سيّدي اللطيف، مرهق.

ثم التفت إلى فابريس:





- وماذا عنك أيها الغريب؟ مرّ ألف عام مذ رأيناك آخر مرة.

أجاب فابريس ممتلئاً بالابتهاج بعد أن ميّز الوجه المليء بندوب الجدري الذي لم يتوقّف عن الابتسام:

- أنا بخير يا بابلو. أنا سعيد جداً لرؤيتك. أصادف الجميع اليوم. يجب أن نحتفل. لنطلب شمبانيا. اليوم مناسبة.

- آخر مرةٍ رأيتك فيها كنتَ تعجز عن دفع ثمن الليمونادة. والآن تطلب شمبانيا؟ لقد نجحتَ في هذا العالم حقاً!.

- إنك لا تعلم مقدار سعادتي لرؤيتك يا بابلو. سمعت عن الأمور الشنيعة التي فعلوها بك. أعجز عن تكرارها حتّى: اعتقلوك، وحقنوك بمادةٍ ما، وألقوك في البحر من طائرة. بابلو، يا عزيزي بابليتو، قلبي كان ينفطر عند التفكير بك.





- حسناً، كم أصبح صديقنا فابريس عاطفياً! هاك يا صديقي، شيءٌ من أسوأ ما يمكن أن يتحمّله المرء، ولكن جاء كلّه دفعةً واحدة. قضيت ثلاث ليالٍ في البحر، ولكنّني نجوت، وفي اليوم الرابع وصلتُ إلى شاطئ يعلم الله ما اسمه. تتذكّر أنّني سبّاح جيّد. أتعلم ما المضحك في الأمر؟ لم تكن الأمواج ما لطمني على الصخور، بل المتوحّشون على الشاطئ الذين ظنّوا أنّني مجرم. في تلك الأيام، يا فابريس، لم نكن نثق بأحد. ولهذا تراني بهذه الحالة، فوضى بائسة. أعطني يدك، يعزّيني أن أرى صديقاً.

- بابلو، عزيزي بابلو. كل شيءٍ سيكون على ما يرام. سيخرّ أولاد الحرام الذين هاجموك على ركبهم ليطلبوا مغفرتك. سنبني لك صرحاً على الشاطئ نفسه ونسمّيه برج بابلو، ما رأيك؟ وسيكرّمونك كما تستحق، بنياشين نحاسيّة وحشود احتفائيّة.

قال الآخر هازّاً رأسه بحيث أصدر رائحةً كريهة عفنة:



- تابع أحلامك يا فابريس العاطفيّ! ولكنّني أحب أحلامك. اعتنِ به من أجلي يا تونيو. تأكّد من أنّ فابريس لن يغضب منا.

سأل فابريس بغضب مفاجئ:

- اللعنة! ألن يأتي النادل! ما الذي يتوجّب على المرء فعله هنا لتتم خدمته؟ تونيو، يجب أن نشرب مع صديقنا. أصرّ على ذلك. لا تحدث لقاءات كهذه كل يوم.

- انسَ يا فابريس. في كل الأحوال، لو جاء فسيطردني ربما. الزبائن العاديّون لا يحبّون أمثالي ممّن ينامون هنا. ألا تتذكّر كيف كانوا يعاملوننا حين كنّا ننام فوق كتبنا ليلة الامتحان؟

قاطعه تونيو:

- هذا ما كنت أقوله له. اعتدنا النوم على الطاولات. كانت وجنتاي تأخذان شكل خطوط الخشب المحفور في الصباح.





حينما كان تونيو يتحدث، لفّ بابلو نفسه بثيابه مجدداً، وبدأ يشخر بعد عدة لحظات مثل كلبٍ قنوع. وكما لو أنّ الشخير مُعدٍ كالتثاؤب، أحسّ فابريس أنّ جفنيه ينغلقان، فقال مقاطعاً استذكار صديقه:

- تونيو، لقد نعست، آسف، سأعود إلى الفندق. رافقني في المشي لو لم يكن لديك مانع. إلى أن نصل إلى الشارع مجدداً فقط.

ربّت فابريس على كومة الثياب بكتاب البروفيسور غروسمان كإيماءة وداع وخرج إلى القاعة وتوجّه إلى الممر وتونيو يتبعه. ما إن وصلا إلى الشارع، تردّد فابريس.

- أتعلم أنّني لا أستطيع تذكّر عنوان فندقي؟ اعتقدت أنّني ذاهبٌ إلى الكارلتون ولكنّ التاكسي أخذتني إلى الكلاريدج. ستظنّ أنّني مجنون، ولكنّني لم أكترث حقاً. تركت حقيبتي في الريسبشن. قالوا إنهم سيعطونني غرفة.





هل يمكن أن تدلّني على طريق العودة؟

- هل أبدو كسائح؟ الفنادق الوحيدة التي أعرفها هي التي تعمل بنظام الساعة، بل إنّني نسيتها مؤخّراً كذلك. ولكن لا يمكن أن يكون بعيداً، أليس كذلك؟ لنرَ.

اعتقد فابريس أنّ من الأفضل سؤال شخص آخر. عند الزاوية، على يمينه، استطاع تمييز شارع المشاة بازدحامه المعتاد، ولكنّه لم يجرؤ على دخوله مجدداً.

- لننتظر من يمشي بالقرب من المول. سيعرفون.

قال تونيو وهو يعدّل نظارته ويومئ برأسه نحو مجموعةٍ من النسوة القادمات باتجاههما:

- حدّد خيارك، "الشقراء، ذات الشعر الداكن، الكستنائيّ، أم الأحمر.

- المعذرة، بعد إذنكنّ، خاطبهنّ فابريس.

توقّفت المجموعة وشعر فابريس فجأةً أنّه على وشك الاختناق.





- مارتا؟

نظرت إليه المرأة الداكنة الشعر بدهشة.

- هل أعرفك؟

- مارتا، أنا نستور. لا أفهم ذلك. جئت لحضور زفاف ابنك. كلّ شيءٍ كان منظّماً. سأتّصل به بعد الظهر. لم يقل شيئاً بشأنك. اعتقدت أنكِ...

عندما كان فابريس يتحدث أدرك أنّ من المستحيل شرح ما قد حدث، أن يطرح عليها الأسئلة التي كانت تضجّ في رأسه، أن يعترف لها بكلّ شيءٍ اعتقدَ أنّه حدث، أن يروي لها القصص التي اختلقها لنفسه عوضاً عن الإجابات، إذ إنّ المشهد، الآن وهنا، وهي واقفةٌ بقربه، كان البرهان على زيف كلّ تلك القصص. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، كيف له أن يفهم دعوة ابنه بالمعموديّة، والأنباء الوحشيّة التي وصلته إلى روما، والسنوات التي مرّت دون أدنى إيماءة أو إشارة أو كلمة؟ كانت النسوة





اللواتي يُحطْن بمارتا يتمعنَّ فيه بفضول: ذات الشعر الأحمر والحاجبين المرسومين على نحوٍ غريب، والأخرى البدينة المُتَوَّجة بعمامة بيضاء كما لو كانت تربط عصابةً على رأسها، والثالثة الشمطاء المصبوغة التي تُخفي حَوَلها خلف رموشها المزيّفة والتي كانت تبذل جهداً باستمرار بسبب رباط قبّتها العالية.

ردّت المرأة التي دعاها نستور مارتا بغضبٍ مفاجئ:

– نستور؟ لا أعرف أيّ نستور، أنت مخطئ.

ثم أسرعت الخطى وهي تنظر إلى الأسفل.

– لا تذهبي يا مارتا، لا تغادري. هل ستكون هذه الكلمات آخر ما نقوله؟

ولكن لم يعد بمقدور المرأة سماعه. غمزته الشقراء المزيّفة بغنج، ثم انعطفت المجموعة عند الزاوية واختفين. وبّخه تونيو ضاحكاً:

– ألم تكن تنوي سؤالهنّ عن العنوان؟"





- ولكن يا تونيو، تلك كانت مارتا. أقسم أنّها هي. لم اكن لأخطئها. بالطبع لم تكن لتكلّمني. لم تكن لتغفر لي حتى بعد مرور كلّ هذا الوقت.

- الشخص الذي لن يغفر لك هو أنا حقيقةً ما لم تجد فندقك خلال خمس دقائق. لدي موعد غداء مع امرأة فاتنة، ولن يصرفني عنه أيّ تصرّف معسول. ثم ألم تكن ترتدي معطفاً منذ لحظات؟

تنبّه فابريس إلى أنّه كان بقميصه القصير الكمّين. شعر بالبرد. قال:

- يجب أن أعود إلى المقهى.

- اسمع يا فابريس، يا صديقي، لن أذهب معك وإلاّ تأخرت. لن تضلّ طريقك الآن، أليس كذلك؟ امشِ بسرعة كيلا تصاب بنزلة برد فظيعة. سررت بلقائك يا صديقي القديم. اتّصل بي.

ثم اندفع تونيو، بعد احتضان وترتبيتتين خفيفتين على





الوجنة، باتجاه شارع المشاة.

"أين سأتّصل به؟ لقد نسي أن يعطيني رقمه"، قال فابريس لنفسه.

دخل المول مجدداً، خائفاً من الإغماء. بل كان عليه إحكام قبضته على الكتاب الذي كان يحمله كيلا ينزلق من يده. كان للإرهاق الذي يغمره صلابةٌ ملموسة، كما لو أنّه يحمله على كتفيه كحقيبة. لم يكن لديه أدنى شك بأنّ المرأة الشابة كانت مارتا، إذ من المستحيل أن يخطئها. لقد أبقى صورتها في درج مكتبه في روما، في إطارٍ عاجيٍّ قديم كان أحد الأغراض الأولى التي جلبها فابريس من الرومانيّ. لم يكن يُخرجها بحيث يراها سواه، أولاً كيلا يضايق فاليريا، وكذلك، بعد الانفصال، كي يتجنّب الأسئلة الحمقاء من مساعدته أو من المرأة التي كانت تأتي لتنظّف المحل، والتي كانت قلقةً دوماً بشأن حياة السيّد العاطفيّة. ولكنّه كان يرى وجه مارتا كلّ يوم: كلّما تناول





محفظة نقوده، كلّما أخذ دفتر الشيكات، كلما احتاج الختم. بل، ودون أيّ أمرٍ يساعده على التذكّر، دائماً ما كانت مارتا في ذهنه، شعرها المفروق من منتصفه، عيناها الواسعتان، ابتسامتها الدائمة. كان يستعيد قصصاً سخيفة عن أطياف القرين والهلوسات الوهميّة والمصادفات الغامضة، ولكن لم تُفلح جميع هذه الحلول الخُرافيّة في فعل شيءٍ أكثر من تعميق عدم فهمه وحزنه.

قطع الممر الكبير في المول دون أن يلتقي أحداً، ووجد نفسه مجدداً في القاعة المستديرة. كان شعاعٌ قويٌّ من الشمس يدخل غبر الكوّة المحاطة بالملائكة والأحصنة الطائرة التي بدت كأنّها غيّرت ألوانها. كانت ستائر المقهى مُسدَلة، وثمّة لوحة "مغلق" على الباب. قرع فابريس الزجاج عدة مرات ولكن لم يرد أحد، كما توقّع. هبّ نسيمٌ صقيعيّ في دوائر مطيّراً قصاصات ورقيّة وأوراق أشجارٍ ميتة من الأرض.





"يجب أن أكون منظَّماً وإلاّ سأبقى أدور في الأماكن ذاتها إلى الأبد"، قال لنفسه، وقرَّر تحديد موقعه جغرافياً. كانت القاعة، كما لاحظ، في مركز المول بالضبط. من هنا كانت الممرات الطويلة تمتدّ كقضبان الدولاب. كان هو وتونيو قد دخلا عبر الممر الشماليّ، من شارع المشاة، وغادرا عبر الممر الغربيّ، حين قابلا المرأة التي قال إنها مارتا.

مارتا. واقفاً تحت القبّة الكبيرة الشاحبة الألوان، مرتعشاً في قميصه الخفيف، محاولاً تخيّل تفاصيل المول ومتاهته في رأسه، تذكَّر فابريس بصفاءٍ مذهلٍ ذلك الصيف البعيد في المنزل الريفيّ، العاصفة والهدوء الذي تبعها، مارتا خائفة ومغوية، مارتا جريئة وحذرة، الغرف الكبيرة العابقة بالرطوبة ورذاذ مكافحة الحشرات، السرير الحديديّ الضخم بفرشته البالية ولحافه المرقَّع الأحمر، لوحة سانتا روزا من ليما مع ساق قمح صغيرة





مثبّتة بها خلف الإطار، المرآة مع اللطخات الحرشفيّة، أثاث غرفة الطعام الأسود ومناديل المائدة الرماديّة، رفّ المجلات المليء بنسخ من مجلة **تايم** بنسختها الإسبانيّة، طعم الخبز الدافئ، الباذنجان المخلَّل، بسكويت الشاي، قطرات العرق على شفة مارتا العليا ما جعل الزغب يتلألأ، القرط الفضيّ على شكل نجمة الذي اكتشفه حين أزاح شعرها ليقبّل عنقها، ويد مارتا تُرشده بحكمة.

في آخر مرة رآها كان كلاهما قد بلغ العشرين، وهو عمر ابنه بالمعموديّة الآن. فكّر فابريس: "الصبيّ لا يزال صغيراً على الزواج. ولكن هذا خياره في نهاية الأمر. ما يهمّ هو أنّه سعيد. أدين لها بشأن مجيئي لرؤيته، وحضور الزفاف، وتولّي واجبي كأبٍ بالمعموديّة، كي أساعده قدر إمكاني". لم يلتقِ فابريس برفيق مارتا. أو ربما التقاه؛ ثمة ذكرى ضبابيّة بأنه تحدّث إليه مرةً في الجامعة، ولكن ليس بوسعه الجزم. كان المرء يلتقي أناساً كثيرين في تلك





الأيام، أصدقاء أصدقاء الأصدقاء المقرّبين، حشود من المعارف بحميميّة فوضويّة وعشوائيّة، طلاب زملاء، رفاق، إخوة، أخوات. "أنتِ تعنين كلّ شيءٍ بالنسبة إليّ".

بدايةً، فكّر بالكتابة إليها، دون أن يعرف إلى أين سيوجّه الرسالة بالضبط، إذ بدت جميع الخيارات شديدة الخطورة، ولن يجازف بوضع أحدٍ في دائرة الخطر. كان بإمكان الآخرين الكتابة إليه بفضل "أميركان إكسبرس" و"فيا ألاماين"، حيث كان يذهب كل بضعة أيام لاستلام المغلّفات المربّعة ذات الحوافّ الزرق والبيض التي كانت عائلته ترسلها على نحو متواتر قدر الإمكان، أو أحد الأصدقاء أحياناً، دون أن تفعلها مارتا على الإطلاق.

بعد السنة الأولى قام فابريس بتغيير عنوانه عدة مرات وبدأت الرسائل بالتقلّص، أكان ذلك بالطول أو التواتر. بين حينٍ وآخر كانت تصله نتفة من معلومات مختلطة، ولكنّ جميع تلك الأسماء والوجوه، التي كانت مألوفة





ومحبوبة جداً في ما مضى، بدأت تكتسب نكهةً قديمةً محدَّدة، مثل لون قطعةٍ أثريّة.

"من غير المعقول أن يكون إيجاد الطريق إلى الفندق بهذه الصعوبة لو مشيت باتّجاه شارع المشاة. كل ما سأفعله هو اقتفاء خطواتي بالاتجاه المعاكس. أعلم أنّه قريب جداً".

مليئاً بالعزيمة، وبرغم التثاؤب (بفعل الجوع والبرد والإرهاق)، دخل الممر الذي جزَمَ أنّه سيقوده شمالاً.

"أتذكّر أنّني مشيت بهذا الاتّجاه مع تونيو. أتذكّر ذلك المتجر الذي يبيع المشدّات والجبائر، وذلك المتجر الآخر الذي يبيع الطوابع. لن يفاجئني كونهما غير مفتوحين. من يشتري المشدّات هذه الأيام؟ ووكالة السفر تلك التي تقدّم رحلات بحريّة إلى أوروبا. هل لا يزال خط 'القطار سي' موجوداً؟ أشك في ذلك. وثمة محل بقالة مع براميل سمك الرنكة والمخلل، وعلب





صفيح زرقاء من بسكويت ‹كانال›، وكأنّ السوبرماركت لم يُختَرَع بعد! كم هو غريب أنّ جميعها مغلقة. ربما هو يوم عطلة ولم يخبرني أحد."

بدا البهو، الأكثر قذارةً والأقل إضاءة، كأنه بلا نهاية طولاً وخواءً. تكتّلت كرات الغبار في مداخل المتاجر، وثمة طبقةٌ من السخام تغطّي النوافذ. كانت مصابيح الفلورسنت في السقف تومض بارتعاش، بحيث تمنح البهو، أثناء فواصل الضوء، شكلَ جُحْرٍ. عجز عن رؤية المخرج.

لم يكن لدى فابريس أدنى فكرة عن الوقت الذي أمضاه في قطع الممر المظلم. فكّر أكثر من مرة بالرجوع مقتفياً خطواته ولكنّه وجد أنّ من الأرجح أنّ طريق العودة لن يكون أقصر ممّا سيتبقّى له قُدُماً. حاول إبقاء نفسه مستيقظاً عبر عدّ محلات اللانجري، بما أنّ ثمة عدداً كبيراً منها، ولكن حين وصل رقم تسعة توقّف لأنّه عجز عن تذكّر ما إذا كان قد أنهى رقم سبعة أم ثمانية. سلّى





نفسه بقراءة الأحرف الباهتة على اللوحات المطليّة التي تعرض أسماء الأعمال المختلفة. أخيراً، بين محل تصليح دمى وواجهة متجر مليئة بالبابيات وأقلام الحبر، شاهد باباً معدنياً صغيراً مواربا على اليسار. دفعه. لطمه الهواء البارد القادم من الشارع في وجهه.

بجانب الباب، وللمفاجأة، كان ثمة نافورة مياه شرب من البورسلان الأبيض. ضغط فابريس الزر، قابضاً على كتاب البروفيسور غروسمان تحت ذراعه، واستخدم كفّه الفارغة لغَرْف قليلٍ من الماء إلى شفتيه. بدافعٍ من الحيطة، متذكّراً أنّ شخصاً حذّره حين كان طفلاً من وضع شفتيه على صنبور نافورة شرب عموميّة ما لم يشأ التقاط السفلس (كانت كلمة غريبة بالنسبة إليه آنذاك ولكنّه خمّن أنّها تدلّ على شيءٍ وحشيّ) بصق المياه التي شربها. شعر بتحسّن. قلّب نظراته بين امتداديْ الشارع كي يقرّر الاتجاه الذي سيمضي نحوه.





فجأةً رأى حافلةً ضخمة مزيَّنة بخطوط معقّدة بالأحمر والأصفر تقترب مثل فيلٍ في موكب استعراض هنديّ. توقّفت عند قدميه تماماً، فُتح الباب بصوتٍ أشبه بتنهيدة، وسأله صوت لطيف عميق: هل ستصعد؟

نظر فابريس إلى الأعلى. جالساً في مقعد السائق، ويداه على عجلة القيادة، كان البرفيسور غروسمان. "هل ستصعد؟" قال البروفيسور مجدداً.

دون أن يعلم ما يقوم به فعلاً، صعد فابريس إلى الحافلة. أُغلق الباب بتنهيدة أخرى، وانطلق البروفيسور غروسمان بسرعةٍ وسط سحابةٍ من دخان العادم. ارتطم فابريس، الذي كان يشعر أساساً أنّه يفقد توازنه، بأحد القضبان المنتصبة. تلفّت حوله. عداه هو والبروفيسور، كانت الحافلة فارغة. جلس فابريس في المقعد الأماميّ.

- بروفيسور غروسمان، ما الذي تفعله بقيادتك للحافلة؟





- الجميع هنا يحتاج إلى عملين، ولم يعد العمل كبروفيسور تاريخ كافياً للمعيشة. من أنت؟

- أنا نستور إستيبان ساmويل فابريس. كنتُ طالباً عندك. منذ سنوات بالطبع.

- ن. إ. س. نستور. آه نعم. لقد رسبتَ في مادة التاريخ سنتين متتالتين إن لم أكن مخطئاً. كسولٌ كدبّورٍ في الشتاء. لم تُنجز أيّة ورقة دراسيّة على نحو ملائم. ولكّني كنت أعلم أنّني سأرى وجهك مجدداً يا بنيّ! كنت أعلم أنّني سأسمع نبرة صوتك الغالي المألوفة! كنتُ أعدّ الأيام بترقّب! ما الأراضي التي جُلت فيها وما البحار الواسعة التي قطعتها لرؤيتي؟ ما الأخطار التي واجهتك؟ كيف حالك؟

- لو لم تكن تقود حافلةً يا بروفيسور، كنتُ سأحتضنك. أشعر بشيءٍ من الضياع الآن. وصلتُ من أوروبا هذا الصباح وما زلت عاجزاً عن الاستقرار. إن





أردتَ الحقيقة، فأنا مرهق.

- هذا ما كنتُ أقوله للتو. لقد ولدتَ مرهَقاً. أتساءل ماذا سيحدث لو ندبتُ وتأوّهتُ كلما شعرت بقليلٍ من الإرهاق.

انعطفت الحافلة جنوباً، وبعد شقّ طريقها عبر متاهةٍ من الشوارع الضيقة والمباني الضخمة المبنيّة على طراز نهاية القرن التاسع عشر، وصلت الساحل، واندفعت الآن بموازاة واجهة بحريّة مؤطّرة بأشجار مزهرة متألّقة. بين لحظةٍ وأخرى، ومن بين الأغصان، كان فابريس قادراً على رؤية مساحة طينيّة واسعة تصطفّ عند حافّتها سلسلة من العربات الصغيرة التي تعرض أحشاء حيوانات مشويّة لإغراء العابرين. فكّر فابريس بأنّ ساعاتٍ مضت مذ أكل آخر مرة.

"يجب أن أخبره بأنّ عليّ النزول. ثمّ سأركب تاكسي وأعود إلى الفندق لتناول الإفطار، أو الغداء بالأحرى، إذ





لا بدّ أنّ الوقت أصبح ظُهراً."

نظر إلى ساعته ولكنّه تذكّر أنّه لم يضبط الوقت منذ مغادرته روما. بالنظر إلى الشمس، ربما كانت الساعة الثالثة أو الرابعة ظهراً.

"ليست لديّ أدنى فكرة عن وجهته"، فكّر فابريس ثم صاح:

- بروفيسور، هل يمكن أن تنزلني هنا؟

- هذه الحافلة لا تتوقّف حتى تصل المحطّة الأخيرة. يجب أن نلتزم بالقواعد. أجاب البروفيسور.

- ولكن يجب عليّ العودة إلى غرفتي. حقيبتي هناك. وقطعتُ وعداً بحضور حفل زفاف.

- ألم تخبرني أنّك كنت عاجزاً عن الاستقرار؟ يجب أن تشغّل عقلك قبل إطلاق عبارات كهذه. خذ قيلولة. لم تفتقر إلى الخبرة في هذا من قبل. سأوقظك حين نصل هناك.





مع أنّ الطريق الموازية للساحل تمتدّ بخطٍّ مستقيم إلا أنّ الحافلة انعطفت فجأةً إلى اليسار وصعدت مُنحَدراً باتجاه أوتوستراد، ولأنّ الشمس كانت تشعّ قويةً في وجهه فقد افترض فابريس أنّهما يتّجهان غرباً. ارتدى البروفيسور نظارةً شمسيّة داكنة منحته شيئاً من مظهر الشرير.

قال البروفيسور متابعاً كلامه:

- قلت لك إنّ لدينا جميعاً هنا عملان، إن لم تكن ثلاثةً أو أكثر. صهري لديه خمسة، أربع ساعات لكلٍّ منها، وبهذا فإنّ الجزء السادس المتبقّي من يومه هو للنوم. لن أقول إنّ هذا ليس صعباً، ولكنّه يحب ذلك في الحقيقة. يبدو الأمر وكأنّك تصبح خمسة أشخاص مختلفين في أربعٍ وعشرين ساعة، كما تعلم. من الرابعة إلى الثامنة هو خبّاز، ومن الثامنة إلى الثانية عشرة يدرّس الفيزياء، ومن الثانية عشرة إلى الرابعة ظهراً يعمل نادلاً





في النادي الباسكيّ، ومن الرابعة إلى الثامنة مساءً يقود حافلةً مثلي، ومن الثامنة إلى منتصف الليل يقدّم برنامجاً في الإذاعة. وبعد ذلك يحتسي كأساً من الجِنّ لنسيان مشقّات الحياة، ومن ثمّ إلى السرير. يومٌ فيثاغوريٌّ كما أسميّه دوماً، خمسة تقمّصات وموتٌ واحد قصير. مثير للاهتمام، أليس كذلك؟

قادهم الأوتوستراد تحت جسرٍ تتجمّع حوله عدّة مبانٍ شققيّة واطئة إلى محطة خدمة غارقة في الغبار. على الجانب الآخر ثمة أرض خالية بدت كأنّها ممتدّة بلا نهاية. زادت الحافلة من سرعتها، ولكنّ الطريق كانت مستقيمةً جداً، والأرض المحيطة بها منبسطة جداً، بحيث كان الظهور العابر والمتواتر لشجرةٍ أو منزلٍ متداعٍ خارج النافذة هو الأمر الوحيد الذي جعل فابريس يجزم أنّهما يتقدّمان.

"والآن، كيف بإمكاني العودة من هنا؟" سأل نفسه





باستسلام أكثر من كونه خوفاً. قرّر أن ينتظر إلى أن يخبره البروفيسور غروسمان بأنّهما وصلا. بدأت شمسٌ بلون الدرّاق أفولها البطيء باتّجاه الأفق.

فجأةً، على يساره، شاهد شكلاً ضخماً بدا كأنه أطلال حصن. "كتلك الملصقات المرسومة التي نراها في المتنزّهات" فكّر فابريس. توقّفت الحافلة. لاحظ فابريس أنّ الأطلال محاطة بخندق مائيّ مظلم وبقايا جدارٍ ثلاثيّ. كان المدخل محميّاً ببوّابة حديديّة مزخرفة وبرج حراسة كان قد شهد أزمنةً أفضل. فُتح باب الحافلة. سمع فابريس من مقعده رنيناً معدنياً وصهيل أحصنة وضجيج آلات وصرير عجلات.

– لا تخرج الآن، لم نصل بعد، قال البروفيسور، ثم أضاف: أُريك هذا المكان لإرواء فضول ارتياد الأماكن الأثريّة. كان هذا مجمَّعاً شهيراً لإقامة الأثرياء. عاش هنا مصرفيّون وعسكريّون، علاوةً على السياسيّين وعاهرات





الطبقة الراقية وقضاة المحكمة العليا وسفراء أجانب وأصحاب شركات استيراد وتصدير وأساتذة جامعيّين في الاقتصاد. لن يكون بإمكانك تخيّل الحفلات التي أقاموها. لا أعلم حقاً سبب ترميمهم لها الآن، ربّما لأنّ الطلب على ذلك كان كبيراً جداً. في كل الأحوال، مع انتظارهم انتهاء العمل، كان على الجميع الانتقال. ستراهم بعينيك. ذلك هو المكان الذي سنتجّه إليه.

أُغلق الباب مجدداً وتحرّكت الحافلة. تابع البروفيسور غروسمان الشرح بصوتٍ مفعم بالحيويّة:

- يقولون إنّ كلّ أجناس البشر استقرّوا هناك. ثمة من باع بلده بثمنٍ زهيد؛ وآخر سَنَّ وأبطل قوانين بهدف الابتزاز؛ كما أنّ هناك آخر، وهو سفّاح نساء شهير، لم يوفّر حتّى بناته من القتل. اسمع، حتى لو كنتُ أمتلك مئة لسان فلن يكون بوسعي تعدادهم جميعاً. الآن جميعهم اختلطوا مع العوام.





لم يعد فابريس يشعر بالجوع أو العطش. كان ثمة خدر لذيذ ينتشر في جسده، وكانت حركة الحافلة تهزّه كما لو كان في أرجوحة. أغلق عينيه وغفا دون أحلام تعكّره. عندما استيقظ كانت ثلاثة أرباع السماء غارقةً في الظلمة، فيما كان خيطٌ ورديٌّ واسع من الضوء يطوّق حافّة الأرض.

"أشعر كما لو أنّ هذا هو مركز الأرض"، فكّر فابريس. شاهد عبر النافذة مجموعة نجوم تبرق فجأةً وقمراً صغيراً مُخْضَرّاً فوقها. كان الريف مغطّى بسديمٍ رقيقٍ من الضباب.

فتح كتاب البروفيسور غروسمان عشوائياً وقرأ بهدف إضاعة الوقت: "لهذا السبب أقول إنّ الماضي ليس سوى ابتكار للذاكرة يتوق إلى الديمومة وأن نعتبره أمراً ثابتاً. بالنسبة إلى القدماء قصة طروادة لم تتغيّر؛ ما تغيّر فعلاً هو الطريقة التي يمكن فيها تخيُّل القصة. وبذا يكون الماضي





خلقاً يخصُّ أولئك الذين يروونه. ومع ذلك، وفي لحظةٍ متعذّرةٍ من الزمن، هناك قصةٌ مبنيّةٌ من ماسٍ وفولاذ تمثّل، بالنسبة إلى نسخنا الخاصة منها، ما كانت تمثّله طروادة المبنيّة من طين وحجارة بالنسبة إلى أغاني الشاعر الضرير وإلى خادم أغسطس".

"اصبر قليلاً بعد وسنصل. هل نمت جيداً؟" سمع البروفيسور غروسمان يحدّثه.

بدا كأنّ الأوتوستراد قد تلاشى. كانت الحافلة تشقّ طريقها الآن عبر مساحاتٍ من العشب المرتفع باتّجاه مجموعةٍ من المصابيح المرفوعة. لم يكن ثمة بناءٌ على مدّ النظر. توقّفت الحافلة للمرة الأخيرة وأشار البروفيسور غروسمان، حاملاً بطانيّةً من التارتان، إلى فابريس كي ينزلا.

بدايةً كان فابريس عاجزاً عن رؤية أيّ شيء بخلاف ألسنة اللهب الطويلة، وشيئاً فشيئاً بدأت عيناه تعتادان





الضوء الشحيح. وضع البروفيسور غروسمان البطانية على كتفي فابريس ثم أمسك بذراعه وقاده بصرامةٍ وسلطةٍ واضحة عبر العشب النديّ. خلال مشيهما كان الضباب يتلاشى بحيث يخلّف أثراً ضئيلاً، وتحت السماء المظلمة كان ثمة نورٌ لطيفٌ يغلّف كلّ شيءٍ بستارٍ فضيّ. في مكانٍ ما في الخلفيّة كانت مجموعة من الأحصنة متنوّعة الألوان ترعى بحريّة. كان بالإمكان رؤية جماعات صغيرة من الرجالِ والنساء والأطفال يتجوّلون دون أيّة وجهة واضحة. وكان آخرون جالسين في دوائر من أربعة أو خمسة أشخاص، أو منخرطين في مباريات مصارعة، أو سباقات القفز بالكيس، أو رقص الآيروبيك. وكان منهم مَنْ يغنّي على أنغام غيتارٍ فريد، وقد ميّز فابريس في الأصوات المتداخلة نبراتٍ مألوفة من أيام مراهقته. وثمة جدولٌ عميقٌ ينساب بين أيكات صفصاف الغَرَب.

– ما هذا؟ مخيم عطلة؟ تساءل فابريس.





- شيء من هذا القبيل. جميع أجناس البشر يأتون إلى هنا، وبما أنّ المجمّع مغلق الآن فبوسعك لقاء لا جيرانك وعائلتك فحسب، أعني الناس العاديين، بل كذلك حثالة الطبقات العليا، بل وحتى المثقفين والرسّامين والكتّاب والراقصات ودكاترة الفلسفة، وحتى مؤلّفي قصص المصوّرة. هل تعرف ذلك الرجل هناك؟ - قال البروفيسور غروسمان وأشار بإبهامه إلى رجل ببذلة بنيّة وأنفٍ مميَّز وشعرٍ رماديٍّ مسحوب إلى الأعلى بالكريم: كان يمشي بصعوبة، بخطوات قصيرة مضطربة كما لو كان يعاني من التهاب المفاصل. توقّف حين رآهما. حيّاه البروفيسور غروسمان: - هكتور، أودّ أن أعرّفك بشخص وصل للتوّ.

نظر الرجل إلى فابريس عابساً بعض الشيء، ثم ابتسم.

- أنا هكتور. لا تقل لي اسمك. سأنساه على الفور. لا شيء يعلق بالخلايا العصبيّة هذه الأيام. ولكن دعني





أصافحك. بما أنّني الأكبر سناً فإني أمتلك الحق بطلب ذلك. – ومدّ أصابع نحيلة قبض فابريس عليها بقلق. – في هذا المكان لا نحتاج إلى تذكّر الأسماء. إننا كثيرون جداً! ليس لأحدٍ عنوان ثابت. نعيش في البساتين وعلى الشاطئ وفي الحقول، ونستثمر خيرات الطبيعة إن أردت القول. يحتاج المرء إلى شمّ قليلٍ من الهواء المنعش بعد قضاء كلّ هذا الوقت بين الأسفلت والإسمنت، ألا تعتقد ذلك؟

أجاب فابريس باحترام:

– لن أخالفك الرأي. في الحقيقة لطالما أحببت الريف ولكّني لم أجد الوقت للتمتّع به أبداً.

قال الرجل الذي يدعى هكتور:

– الوقت هو الأمر الوحيد الذي لدينا منه ما يكفي هنا. فكّرتُ مرةً بقصة مصوّرة يصل الزمن فيه إلى النهاية. كانت قصة رجلٍ يهجس بالموت، أو، لو كنتَ تفضّل، قصة كروزو مستقبليّ وقد تحطّمت سفينته وسط عائلته





وأصدقائه، سجيناً لا في البحر بل في السنوات. لم يكن بطلي وحيداً: لو كان سيتم إنقاذه، كان سيرغب بإنقاذ الآخرين معه. ودائماً ما كنت أؤمن بأنّ البطل الحقيقيّ الوحيد كان بطلاً بين كثيرين. لا البطل الفرد، لا البطل الأوحد.

قال نستور وهو يلّف البطانية حول جسده:

- ياللعجب! أنا واثق بأنّني قرأت قصتك مرةً، منذ زمنٍ بعيد. لست متأكّداً من التفاصيل. أخبرني المزيد.

ولكن بدا واضحاً أنّ الرجل ليست لديه أدنى نيّة للمتابعة، وقال مخاطباً غروسمان:

- بروفيسور، لمَ لا تعرّف صديقنا بأشخاص آخرين بحيث يتمكّن من إيجاد موضع قدمه، لو جاز التعبير، بحيث لا يشعر بالضياع الشديد؟

- أنت تعرف أولئك الناس أكثر مني يا هكتور. تولّ زمام الأمور.





- كما تشاء. لنرَ الآن. من أين نبدأ؟ هناك على اليمين، حيث ستلاحظ هذين التجويفين المائيّين، ثمة رجل طويل بشارب أسود. هل تراه؟ - أشار كاتب القصص المصوّرة بإصبع مائلة باتّجاه شخص وحيد يمشي دائرياً كما لو كان يحاول حفظ قصيدة. - يدعونه القاطع. إنه وافدٌ جديد، أحد كثيرين جاؤوا بعد إغلاق مجمّع الإقامة. عسكريّ سابق بالطبع. يمكنك تمييز ذلك من الطريقة التي يبقي ظهره فيها مشدوداً.

- لمَ يسمّونه القاطع؟ سأل فابريس.

- السبب مضحك جداً. سأخبرك. تخيّلْ أنّه كان يحبّ استهلال كلّ سؤال خلال التحقيق بقطع أحد أصابع السجين. كان يفعلها بنفسه، بسكّين صغيرة جميلة، **نصل سولنغن**، بمقبض من خشب الورد. يبدو أنّه كان شديد المنهجيّة. كان يبدأ بالخنصر، فسؤال، ثم البنصر، فسؤال آخر، وهكذا إلى أن يصل الإبهام. أحياناً كان يكتفي





بإصبعين، وأحياناً أخرى لم تكن الأصابع العشرة لتكفيه. جنديّ شديد الكفاءة، أو هذا ما يقولونه. لم أره قط وهو يفعل ذلك.

شعر فابريس بتقلّص في معدته. حاول التحدّث. وأخيراً نطق:

- ولكنّ هذا مستحيل. يا للوحشيّة!

ردّ الكاتب:

- ليس مستحيلاً بكلّ تأكيد، ولكنّ كونه مقبولاً أم لا، تلك مسألة أخرى. ولا بدّ أن تعلم أنّ كل شيءٍ كان يحدث تبعاً للقواعد، تحت إشرافٍ طبيٍّ وسلطة قاضٍ - وأشار بالإصبع العظميّة ذاتها باتّجاه اليسار - هل ترى ذينك السيّدين ممتلئي الجسم اللذين يبدوان توأماً، الجالسَيْن على لعبة الخيل الدوّارة؟

مدهوشاً، رأى فابريس شيئاً يشبه عجلةً معدنيّة أفقيّةً، ثُبِّتت عليها عدة مقاعد، تدور ببطء. كانت فارغة بخلاف





رجلين كهلين يجلسان متجاورين وقد انهمكا في حديثٍ نشيط.

- إنهما الدكتور لكسيون والدكتور سالمونيوس. الأول جرّاح والآخر قاضٍ. الدكتور لكسيون واسع الخبرة، شديد الإتقان، ويعدّ نجماً بارزاً في مجال عمله، ودرّس في جامعات أجنبيّة كثيرة وحدها السماء تعرف عددها. كان المسؤول عن الإشراف على التحقيقات، ويقولون إنّ رباطة جأشه كانت شديدة إلى درجة أنّه أشرف مرةً على جلسة تحقيق مع والد زوجته البولندي الأصل الذي اتُّهم بعدم تسديده ديناً. كما أشرف، مرةً أخرى، على جلسة مع زوجة صديقه المقرّب. وبحسب أقوال من كانوا هناك، لم يُبدِ أدنى عاطفة خلال فترة الاستجواب. إنه مهنيٌّ حقيقيٌّ كما قلت لك. أما الآخر، الدكتور سالمونيوس، فهو شديد التجرّد إلى درجة أنّهم يسمّونه (أو هو سمّى نفسه) جوبيتير المحاكم. كان ينبغي





عليك مشاهدته في أيامه الذهبيّة، حين كان يأتي إلى قصر العدل في سيارة ليموزين ممشوقة برّاقة، مع دراجات ناريّة على جانبيها تلوّح بأضوائها المتقطّعة التحذيريّة. مشهد مذهل!

سأل فابريس لمجرّد أن ينطق بأيّ شيءٍ محاولاً كبح موجةٍ جديدةٍ من الغثيان:

- هل هما هنا منذ وقتٍ طويل؟

- لا، كلاهما وافدٌ جديد. منذ عدة أشهر لم يأتِ إلى هنا إلا الناس العاديّون. لقد مرّت أيام كنا نبدو فيها وكأنّنا نعيش في مجلة بيبول. لحسن الحظ أن اشتراطات اللباس مرنة جداً. لا أحد سينتبه ما إذا كنت ترتدي الجينز أو ربطة عنق.

كما لو أنّهما عرفا أنّهما كانا محور الحديث، رفع كلٌّ من الرجلين البدينين يده ملوّحاً باتّجاه فابريس.

التفت الكاتب حوله وأشار إلى اليسار، ثم تابع قائلاً:





- مثلاً، أولئك الناس هناك الذين يتسلّقون الأشجار، هناك في الخلف. هل تراهم؟ إنهم يرتدون ثياباً تبدو عتيقة الطراز الآن، أليس كذلك؟ بناطيل فضفاضة وقمصان مجعّدة مفكوكة الأزرار وأبواط أو صنادل... كلّهم شبابٌ تقريباً، قاموا، في معظمهم وبأطيب نوايا العالم، بإطلاق الرصاص على رأس محاسب في متجر أو قاموا بتصفية صناعيٍّ مخطوف. هناك أشياء تحدث حين تكون في مقتبل العمر. ترى بؤس حيوات الآخرين فتشعر أنّ ثمة شيئاً ينبغي أن يتغيّر، وتبدأ بطرح أسئلة وتجادل، تجادل وتطرح أسئلة، ثم تجد نفسك فجأةً تطلق النار بغزارة كما لو كنتَ في فيلم عصابات، وترى الرشّاشات والشرطة، وكلّ هذا السيرك اللعين. Arma secuti impia[1]، لو أردنا صياغة عبارةٍ مناسبة. من الأفضل ألاّ تطرح عليهم أسئلة كثيرة. من يعلم أيّة جريمة أو قدَرٍ شنيعٍ يسكنهم!

[1] عبارة لاتينيّة من كتاب **الإنيادة** لفيرجل تعني "[أولئك الذين] اتّبعوا الأسلحة الآثمة" - (المترجم).





تحت الأشجار، منفصلين نوعاً ما عن البقيّة، ثمة مجموعة من الرجال والنساء جالسون في دائرة من كراسٍ ذهبيّة القماش قابلة للطيّ حول مفرش طاولةٍ مع أطباق طعام وكؤوس شمبانيا. كانوا يتحدثون بحماس، ويمكن سماع موسيقا كمان عذبة في الخلفيّة. بين لحظة وأخرى كان ضحك إحدى النساء يقتحم الأصوات كبكاء طفل. رؤيةُ ما بدت أنها نزهةٌ أرستقراطيّةٌ ذكّرت فابريس بالجوع والعطش الذي لم يعد يشعر بهما في الحقيقة. قال متأملاً:

– أولئك الناس يقضون وقتاً ممتعاً.

ردّ الكاتب:

– لا، لا. مأدبة الأُبّهة الفخمة ليست سوى للاستعراض. لا يُسمح لأحدٍ بأكل أو شرب أيّ شيء، Noblesse Oblige [1]. لو حاول أحدهم مجرّد تذوّق كسرة طعام فإن تلك الحيزبون القبيحة، التي ترتدي زيّ ممرّضة، ستقوم

---

١ "التزام النّبل" بالفرنسيّة في الأصل – (المترجم).





بصفعه بقوّة إلى حدّ إدارة رأسه. ولكن لن يتجرأ أحد. إنها مسألة شرف بين أصحاب النسب أن يتصرّفوا وكأنّ شيئاً لا يحدث، وأن يغسلوا أيديهم من كلّ شيء، وأن يرفعوا صوت الموسيقا لو شرع أحدٌ قريبٌ بالصراخ طلباً للمساعدة.

عندئذٍ، وعند حافّة المياه، شاهد فابريس مجموعة من الرجال والنساء يركضون أنصاف عراة خلف بعض الأحصنة الصغيرة.

سأل فابريس:

- وماذا عن أولئك الذين هناك؟ لا يبدون مكترثين ولو قليلاً بلباسهم.

أخذ البروفيسور يشرح غروسمان بحماس دليلٍ سياحيّ:

- آه، أولئك هم المليونيرات **الجدد**. هؤلاء من أثْرَوا على ممتلكات ضحاياهم. هؤلاء من اشتروا بأبخس الأثمان زمن





الإفلاس، ومن تلقّوا الرشاوى لتسريع ملفّات كانت ستُترَك لتغرق في الغبار في أقبية المحاكم، أو لإصدار أمرٍ بالمثول أمام المحكمة لسجناء قد ماتوا أساساً. وكانوا قد أسّسوا في مجمّع الإقامة نادي تعرٍّ محصوراً على فئة شديدة التحديد. لم تُتَح لي الفرصة لإخبارك بشأن الحفلات الجامحة التي اعتادوا إحياءها. هذا ما يقولونه على الأقل. لم أحضر أياً منها، فأنا أصاب بالبرد بسرعة.

تساءل فابريس عن عدد الساعات التي انقضت منذ وصوله في الحافلة وهو يلفّ بطانيّته بقوّة حول كتفيه. ولكن لا الظلمة المزيّنة بالنجوم فوقه، ولا الوهج الورديّ المحيط به، قد بدآ بالتلاشي ولو قليلاً. على العكس، بدا الفضاء الريفيّ أوضح من قبل، واكتسبت الأحصنة والبشر مظهراً غرائبياً. أصبح قادراً الآن على تمييز عددٍ لامتناهٍ من التفاصيل: الخطوط الملوّنة المتنوّعة على ناصية هذه الفَرَس، القسمات شبه الدقيقة من الازدراء أو الألم على





وجه ذلك الرجل، النظرات الوادعة لأولئك الشباب هناك، السوار الساحر الأنيق للفتاة البعيدة. وشرع فابريس بالتحديق في المشهد المتحرّك ببطء.

أضاف الكاتب يقول:

- أجده أمراً غريباً جداً. حتى في مكانٍ كهذا لا يُقْدِم الناس على تغيير عاداتهم. يتابعون فعل ما كانوا يفعلونه دوماً. يرتدون طراز الملابس ذاته، يتحدّثون بالنبرة ذاتها، ينطقون بالأكاذيب ذاتها، ويُبدون الاهتمام بالأمور ذاتها. يراودني انطباع أحياناً بأنّهم يطوفون دائرين ليبقوا ثابتين في المكان نفسه بكل بساطة.

ردّ فابريس ليُظهر أنّه قد قرأ الكتاب:

- تقول شيئًا مشابهاً لهذا في كتابك يا بروفيسور.

- يعود هذا لأنّنا، أنت وأنا يا هكتور، عجوزان مزعجان، - أجاب البروفيسور غروسمان متجاهلاً تعليق فابريس، وعاود المشي مجدداً واضعاً ذراعه





اليسرى خلف ظهر كاتب القصص المصوّرة. - بالنسبة إلينا، الزمن هو تلك اللحظة الموجزة التي عشناها البارحة فحسب. أما بالنسبة للشباب، وهنا لا بدّ أن أشملك بالكلام يا طالبي السابق - واحتضن البروفيسور فابريس بذراعه اليمنى. - الزمن هو ما يتبقّى للمضيّ فيه، الطريق التي لا تزال تبدو أنّها الأطول. نعلم، هكتور وأنا، أنّ كلّ شيءٍ يمضي هكذا! - وفرقَعَ بأصابعه - تتابعون إيمانكم بالتحوّل، وبالتغيّرات الجذريّة، وبالتحوّلات العميقة. وهذا ما ينبغي أن تكون عليه الحال. أرواحكم تحفّها الرغبة باكتساب شهرة قد تصيبونها في صباحٍ بعيد، وتحفّها المعارك التي تعتقدون أنّكم لا تزالون مُلزَمين بخوضها ذات ظهيرةٍ بعيدة، كما تحفّها المشاقّ التي قد تتكبّدونها في ليلةٍ مُرتقَبة. هذا، بالطبع، هو القانون الصارم. بالرغم من أنّنا، هكتور وأنا، لم نعد نؤمن بشيءٍ من هذا القبيل.





كان البروفيسور قد قادهم، دون أن يقصد هذا حقيقةً، باتّجاه أشجار الصفصاف، فأصبح بإمكان فابريس الآن مشاهدة مجموعة نساء من بين الأغصان الكئيبة. ميَّز مارتا مباشرةً، "كشخصٍ رأى في مطلع الشهر، أو يجزم أنّه رأى، القمر بين الغيوم"، نطق دون أن يعلم ما كان يقوله تماماً. كانت ترافقها الشلّة النسائيّة ذاتها: الصهباء ذات العينين المتبرّجتين، والبدينة مع عمامتها، والشمطاء بصبغتها الشقراء. كانت ثمّة امرأة خامسة قد انضمّت إليهنّ، ليليانا. التفتت النسوة الخمس عفوياً، ودون أن يعرن الرجلين العجوزين اهتماماً ثبّتْن نظراتهنّ على فابريس.

قال الكاتب:

- يبدو أنْ ليس ثمة حاجة كي أقوم بالتعريف.

أجابت ليليانا منفصلةً عن المجموعة لتقبّل فابريس على وجنته:





- لقد التقينا من قبل. هذا الرجل معروف بهجره للسيّدات.

قال فابريس لنفسه إنّ من المستحيل تفسير ما حصل لليليانا. إذ من جهة، بدا كلّ شيءٍ غير قابل للتصديق بالنسبة إليه؛ ومن جهة أخرى، أحسّ بعجزه عن تتبّع أحداث اليوم المشربكة، فكيف بتفسيرها.

- أرجو ألاّ تظنّي بأنّي هجرتكِ. لقد تهت. هذا كلّ ما في الأمر.

اقتربت الشقراء المزيّفة من فابريس ووضعت كفّاً متجعّدةً مليئة بالخواتم على بطّانيّته. انتبه فابريس إلى أنّ ظلاًّ يشبه الساعة الخامسة يخيّم على ذقنها، فيما كانت تفاّحة آدم مرعبة تجاهد لتخرج من القَبّة العالية.

قالت الشقراء بصوتٍ مرتعش عميق:

- وها قد وجدناك الآن يا عزيزي. هذا ما يهمّ في نهاية الأمر. أهواء القدَر. لا أعتقد أنّنا قد تعارفنا. أنا السيدة



كانون [مدفع]، تماماً كما يعنيه الاسم. أنت، Vox Populi[1]، السيّد فابريس. تشرّفنا. من الوضح أنّك تعرف ليليانا المسكينة. أما هذه – وأشارت إلى المرأة ذات العمامة

– فهي حبيبتنا إيفلين، أرملة الأميرال الراحل كابانيو.

أشارت البدينة بإيماءة احترام مميلةً عمامتها جانباً، ودون أن تنتظرها كي تنهض تابعت السيّدة كانون محرّكةً إصبعها باتّجاه الصهباء:

– وهذه إرفيلا، حلوتنا إرفيلا. إنها تبرّج وجهها لتُخفي أساها الأموميّ. لقد خانها ابنها. هل لك أن تتخيّل هذه القسوة؟

حاول فابريس إخفاء حرجه بإيماءة برأسه، وردّت المرأة بإيماءة مماثلة.

– والآن، المرأة التي دعوتَها مارتا، إن لم أكن مخطئة.

---

١ عبارة لاتينيّة تعني حرفيًا "صوت الشعب"، وتُشير المرأة هنا إلى المعنى الحرفيّ لاسم فابريس Fabris باللاتينيّة، والذي يعني "العمّال" – (المترجم).





اقتربي يا فتاة ورحّبي بصديقنا، لا تكوني بغيضة.

وقرّبت المرأةَ التي كانت تقف تحت أغضان الصفصاف وربّتت السيّدة كانون على ظهرها عدة مرات وكأنّها تريد دفعها إلى الأمام، ولكنّ المرأة رفضت التحرّك.

قال البروفيسور غروسمان بعد برهة صمت طويلة:

- أقترح حركةً دبلوماسيّة. سنتمشّى جميعاً ما عدا صديقنا فابريس والسيّدة الصغيرة. سنعود خلال عشر دقائق.

وكما لو كان يقود قطيعاً من الخراف هتف بالنساء الأربع مشيراً باتّجاه العشب العالي. تبعهم الكاتب بخطوات مضطربة ضاحكاً.

انتظر فابريس مغادرتهم قبل أن يبدأ بالتحدّث:

- مارتا، لا أعلم كيف أفسّر لك ما حدث. لا الآن ولا آنذاك. في آخر مرة التقينا، خلال المظاهرة، حاولتُ حمايتك ولكنّني أضعتك. أضعنا بعضنا. كان الناس



يركضون في كل الاتّجاهات، وكنّا عاجزين عن رؤية أيّ شيء، وشعرنا بأصوات تنفّس الأحصنة على ظهورنا، وسمعنا زعيق السيوف وصرخات من سقطوا. ثم بحثت عنكِ، ولم يعرف أحد مكانك. لم يكن ممكناً التحدّث مع معظم الناس، إذ كان هذا شديد الخطورة. لم أعرف ما عليّ فعله، أو إلى أين يجب أن أرحل. أخبرني أحدهم بأنكِ اعتُقلتِ وخُطفتِ إلى الجنوب، وأنّكِ أحببتِ رجلاً هناك. أرسلني والداي إلى روما. لم تصلني أخبار عنكِ لسنوات. ومن ثم، ذات يوم، وصلتني رسالة تقول إنكِ أردتِ منّي أن أكون أباً بالمعموديّة لابنك. وصلتني بعد شهور طويلة من تاريخ كتابتها. لا أعلم كيف وصلتني، وبفضل مَنْ. كانت الورقة قديمة ومهترئة، والمغلَّف وسخاً وممزّقاً. بدت لي الرسالة أمراً لا يُقدَّر بثمن، كتلك التحف التي أبيعها في روما، كإحدى تلك الأشياء الصغيرة التي ينبشها المرء فتصيبه الشهرة دون تواضعٍ أو



عار، ودون أيّة محاولة لاكتشاف صاحبها أو مغزاها. قرأت رسالتك إلى أن حفظتها غيباً. صُنْتها كشيءٍ ثمين لأنّها كانت كلّ ما وصلني منكِ. بعد ذلك لم أحاول معرفة ما حدث لكِ، ربّما لأنّني كنتُ أخشى أن يخبرني أحدٌ ما بما حصل.

حين نطقت مارتا أخيراً تحدّثت بصوتٍ خفيض لا يكاد يُسمَع، وحاول فِابريس تركيز سمعه لالتقاط الكلمات التي كادت تغرق في حفيف أغصان الصفصاف على الأرض.

- أردتَ تجميل هروبك، أردتَ الرحيل دون أن تنطق بكلمة. لمدةٍ طويلة، وطوال ذلك الشتاء، كنتَ قد خطّطتَ للرحلة، أعلم هذا. هل كنتَ تحاول الهرب؟ ألم تكترث إلى أنّكَ ستتركني، وإلى كونك تنكث العهود التي قطعناها على أنفسنا، وإلى أنّك لن تستمتع بعد ذلك بالحضور الذي كنتَ تقول إنّه يسبّب لك السعادة؟ لأنّني



كنتُ معك كرهني الجميع واعتبروني عدوّهم. بِيَد مَنْ تركتني، أنا التي كنتُ أحتضر؟

- لم أُرد يوماً أن تحدث الأمور بتلك الطريقة. لم أختر الرحيل، ولم أختر الإقامة في روما. يجب أن تصدّقيني.

- كذب. حين التقينا كنتَ تبدو كمن تحطّمت سفينته، روحاً تائهةً مسكينة، وكنتُ أنا مَنْ دعاك للانضمام إلينا. لاحقاً، حين علمتُ أنّك رحلت، لم أكنْ أدعو إلا أن تكون مرغماً على تكرار اسمي أينما كنت، حين تكون وحيداً، تكرّره بيأس. دعوتُ كي تلاحقك ذكراي مهما كنتُ بعيدة، وأن يتابع طيفي تلبُّسك عندما تموت، وأن تصلني أنباء إخفاقاتك إلى قَلب قبري حين أموت، بحيث يمكنني سماعها كي أبتهج.

- مارتا، لم أكن متنبّهاً لكلّ هذا.

- يا لضآلة معرفتك بي سابقاً. ويا لضآلة معرفتك بي الآن.





تذكّر فابريس لحظةً إثر لقائهما الأول منذ زمنٍ بعيد. ذات مساء، كان قد صعد إلى سطح إحدى ناطحات السحاب المجاورة لمتحف الفنون الجميلة لاستعارة كتابٍ أو لإعادته. عبْر نوافذ الشقّة، خلال النهار، كان بوسع المرء مشاهدة المدينة بأسرها وهي تتوسّع غرباً حيث لا يمكنه الآن تمييز شيءٍ عدا بريق أضواء، وشرقاً حيث النهر الذي ليس الآن سوى ظلمةٍ دامسةٍ تنساب هنا وهناك بتثاقل. أحسّ فابريس، بثقةٍ مطلقة، بأنّ الشخص الذي كانه، هناك، في ذلك المكان العالي وفي تلك اللحظة المحددة، لم يكن سوى القمّة المرئيّة من شيءٍ كان ينسدل عبر عشرات الطوابق باتّجاه الشارع، منسكباً على أشجار المنتزه، ضارباً بجذوره تحت الطرق وعبر المياه، لامساً أفق الأرض المفتوحة على جانب، وأفق ضفّة النهر البعيدة على الجانب الآخر. كان شيئاً مُعتماً، هائلاً، عميقاً، لامرئياً لم يعرف منه إلا شذرةً تنعكس كل صباح في مرآته، وحين



تتلاشى تلك الضآلة فإنّ كلّ الضخامة والغموض المتبقّيين سيستمران، ممتلئين بالحيوات والتتمّات والفصول البديلة الممكنة للآخرين، في حيوات الناس الآخرين الذين لم يكونوا فابريس وكانوا فابريس أيضاً في آن. قال في نفسه: يا لضآلة ما أعرفه عن نفسي!

سمع فابريس صوت السيدة كانون البغيض وهي تقترب بحماس:

- استراحة، استراحة. يجب أن نتصرّف جميعنا كبشر متحضّرين. بروفيسور غروسمان، أنت يا مَنْ تعرف هذه الأشياء، أيّدني فيما أقول.

قال البروفيسور قابضاً على ذراع فابريس:

- سآخذه معي. سيّداتي وسادتي، وداعاً.

ماشياً مع البروفيسور، التفت فابريس إلى الخلف مرةً أخرى ورأى كيف أنّ مارتا، المرأة التي دعاها مارتا، جلست برفقة الأخريات تحت الصفصاف، فيما نزل





الكاتب عبر الضفّة إلى الماء، بعد أن خلع حذائيه، وكأنّه يريد غسل قدميه.

مشيا بصمت بين الناس والأحصنة. كانت معظم الأحصنة جاثمةً تستريح. كان ثمة حصان بارشيرون ذو ناصيةٍ بيضاء ضخمة يضرب بحوافره في الهواء. "لا بدّ أنّه يحلم بالركض"، فكّر فابريس.

بدت طريق العودة مشياً أطول الآن ممّا بدت عليه حين قطعاها أول مرة. قبل أن يبلغا المكان الذي أوقف فيه البروفيسور الحافلة بقليل ظنّ فابريس أنّه ميّز تونيو وبابلو بين مجموعة من المعربدين، ولكنّه لم يتوقّف ليتأكّد. أخيراً أخرج البروفيسور المفاتيح من جيبه.

– حان وقت المغادرة. هل الشارة بحوزتك؟

– أيّ شارة؟

– ألم يعطوك شارة هذا الصباح في المطار؟

تذكّر فابريس الشارة التي كانت على شكل إكليل





غار برّاق التي عرضتها عليه عاملة التنظيف ولكنّه رفض أخذها. "هو لا يعني تلك بالتأكيد. لم يكن ثمة إشارة رسميّة عليها. لم يخبرني أحدٌ بأنّني سأحتاجها".

- لا، أجاب فابريس كاذباً.

- يا للأسف. لا يمكنني إعادتك بدونها. هم يطلبونها عند الخروج. إنهم صارمون للغاية.

كان فابريس على وشك أن يقول شيئاً ما ولكنّه لم يجد الكلمات. شعر أنّ الإرهاق، الذي ظنّ أنّه قد تجاوزه، كان يستبدّ به مجدداً. أنزل البطانية عن كتفيه.

- شكراً بروفيسور.

- ولو يا بنيّ. تخيّل! لم أكن سأدعك تُصاب بذات الرئة وأنت تتمشّى عبر العشب النديّ برفقتي، هل سأفعلها الآن؟

أخذ البروفيسور البطانيّة من فابريس وطواها بحرص شديد، ثم صعد إلى الحافلة بعد أن ربّت برفق على وجنة





فابريس، وقال مطلاً من النافذة:

- سررت برؤيتك مجدداً. لطالما أحببت لقاء طلاّبي السابقين. سعادة رجل عجوز. الأمر ليس بيدي.

بدأت الحافلة العمل بزئيرٍ غاضب، ثم استدارت بسرعة وانطلقت باتّجاه الأوتوستراد. مع اختفائها بعيداً شاهد فابريس أربع نقاطٍ من الضوء تقترب على الطريق نفسها. بعد عدة ثوانٍ توقّفت حافلتان أُخريان، متماثلتان في الحجم واللون، على مقربة من مكان وقوف فابريس.

"لا بدّ أنّ الوافدين الجدد قد وصلوا. واثقٌ بأنّهم سيشعرون بالارتباك ذاته الذي شعرتُ به حين وصلتُ. سأذهب لأقدّم نفسي. ربّما كان بوسعي إرشادهم قليلاً"، فكّر فابريس.

بحزم، ودون أن يعير انتباهاً للرياح الباردة التي كانت تهبّ عبر قميصه الخفيف، اقترب من الحافلة الأولى التي كان بابها يُفتح الآن.





في روما، استلم نيستور فابريس دعوةً أربكت حياته الهادئة كتاجر عاديَّات، فشدّ رحاله متوجهاً إلى بوينس آيرس في زيارة قصيرة إلى أراضي صباه.

فور وصوله، عَبَرَ الدرب المحفوف بالمخاطر المُفضي إلى مملكة ما بعد الموت. كل ما في المدينة عدائي نحوه، وأمكنته المفضّلة تضمحلُّ عندما يُصرّ القدر بعناد على إعادته إلى الوراء. فأصدقاؤه القدامى بدوا أشبه بأشباح خاطفة تُذكِّره أنه، هو أيضاً، اختفى في نهارٍ مريع من المظاهرات التي قمعتها قوى حفظ النظام بعنف؛ لكن ليس داخل زنزانات البوليس، مثلهم.

لكن إن كانت العودة إلى روما غير ممكنة حالياً بالنسبة لبطل الرواية، فإنها ممكنة بالنسبة لألبرتو مانغويل الذي يعود إلى لغة مراهقته ليستكشف، في هذه الرواية الخيالية، السنوات المظلمة من تاريخ الأرجنتين.

**ألبرتو مانغويل مؤلِّف موسوعيّ مشهود له عالمياً ومترجم وكاتب مقالات وروائي. حازت كتبه جوائز عديدة وكانت الأكثر مبيعاً. ولد في بوينس آيرس، وانتقل إلى كندا سنة ١٩٨٢، ويعيش الآن في فرنسا حيث عيِّن مديراً لهيئة الفنون والآداب. صدر له عن دار الساقي "تاريخ القراءة"، "مع بورخيس"، "المكتبة في الليل"، "يوميات القراءة"، "فنّ القراءة".**



ISBN 978-6-14425-853-8
9 786144 258538 >